الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

جامعة بجاية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة

الالتفات ودلالته في القرآن الكريم

مذكرة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص : لسانيات عربية

إعداد الطالبتين:

– نـــجمة حاره

– مريـــم هرون

إشراف الأستاذ:

– أرزقي شـــمون

أمام لجنة المناقشة المكوّنة من السّادة الأساتذة:

– الدّكتورة: شعديث لحول ..... جامعة بجاية.....رئيسا

– الدّكتور : أرزقي شـــمون..... جامعة بجاية..... مشرفا ومقررا

– الدكتورة: نورة بن زرافة..... جامعة بجاية.....عضوا مناقشا

السنة الجامعية:2020/2019.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعلم أنّهم يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَر لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌ مُبِينٌ﴾

صدق الله العظيم

النحل :103

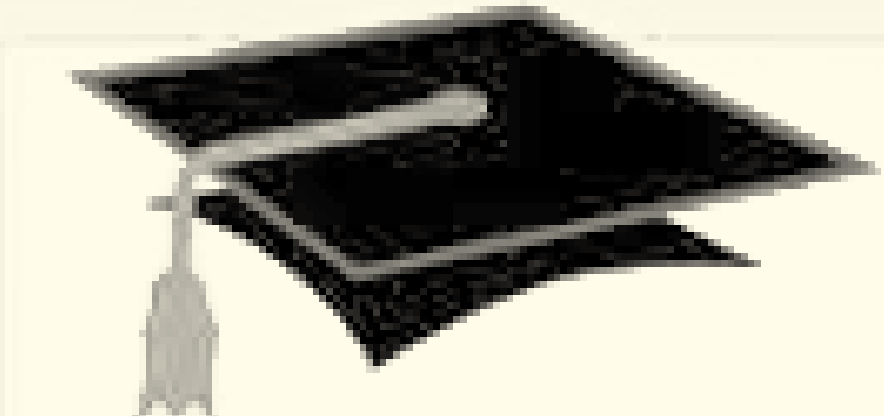

شكر وعرفان

نحمد الله عزّ وجلّ الذي ألهمنا الصبر والثبات، وأمدنا بالقوة والعزم على مواصلة مشوارنا الدراسي ... وتوفيقه لنا في إنجاز هذا العمل .. فنحمدك اللهم ونشكرك على نعمتك و فضلك ... ونسألك البر والتقوى ... ومن العمل ما ترضى ...، والصلاة والسلام على حبيبك وخليلك الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

نتقدم بجزيل الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل الدكتور **شمون أرزقي** لتفضُّله بالإشراف على هذا البحث وسعة صدره وحرصه على أن يكون هذا العمل على الصورة المنشودة ...، نسأل الله أن يجزيه كل خير إذ قبل الإشراف على هذا العمل المتواضع ...، وعلى المجهودات التي بذلها من أجلنا، والنصائح والتوجيهات العظيمة التي كان ينير بها طريقنا ... وهو يتتبّع هذا البحث بكل اهتمام .. جعل الله ذلك في ميزان حسناته يوم الدين

كما نتقدم بجزيل الشكر وخالص الامتنان إلى إدارة الكلية وأساتذتها.

إهداء

أهدي ثمرة عملي هذه:

إلى فيض الحب ووافر العطاء بلا انتظار ولا مقابل ... تلك التي كانت سندا لي طيلة إعداد هذا العمل حتى ميلاده ... إلى من غمرتني بحنانها وحبها ***"أمي"*** التي مهما قلت لن أوفيها حقها ... أتمنى لها دوام الصحة والعافية.

إلى من كان شمعة تنير دربي، وإلى سندي ومصدر قوتي الذي زرع في نفسي روح المثابرة والعزيمة والاجتهاد وحب الاطلاع والسير على خطى الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ***... أبي*** العزيز أطال الله في عمره.

إلى من شاركتهم رحم الأمومة ... رفقاء البيت الطاهر أشقائي: ***عبد الكريم ومنير*** وشقيقتي الصغيرة ***نسرين*** ... وإلى كل أفراد عائلتي الكريمة

إلى الأستاذ المشرف ***"شمون أرزقي"***وإلى رفيقتي ***"مريم"*** التي كانت معي وكنت معها طوال مشوارنا الجامعي.

إلى كل من جمعتني بهم الحياة، صديقاتي العزيزات: ***نجاة، وأمينة***، ورفيقي ***ماسينيسا.***

إلى طلبة قسم اللغة والأدب العربي كلهم، وإلى أساتذتنا الأفاضل جميعا ... إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد.

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل المتواضع .

نجمة.ح.

إهداء

أهدي ثمرة جهدي هذه إلى:

من قال الله تعالى فيهما: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا"

إلى سندي منبع الدعاء والرضا ***"أمي"*** الحبيبة و***أبي*** الغالي أدامهما الله تاجا فوق رأسي.

إلى من جمعتني بها الصداقة بالمحبة والمودة، صديقتي وزميلتي ***"نجمة"***.

إلى رفيقي ***"العربي"***.

إلى أستاذنا المشرف ***"شمون أرزقي"***.

مريم.هـ.

مقدمة

مقدمة :

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلله فلن تجد له وليّا مرشدا، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

القرآن الكريم نصّ معجز ببلاغته وفصاحته وبيانه ودقّة تصويره وجمال لغته، ما جعل منه أرقى الكتب وأعظمها وأعلاها، أبهر العقول وتحدّى أكبر الفصحاء.

توقّف عند ظواهره اللغوية المتعدّدة والمتنوعة كثير من المفسرين والبلاغيّين عبر العصور، مما خلّف أعمالا غزيرة اهتمت بمعاني القرآن وفوائده وأسراره وبتبسيط القول في الإفصاح عن وجوه الإعجاز والكمال فيه، وكان ذلك عبر علوم البلاغة الثلاثة (المعاني – البيان – البديع)،التي تشكّل بحق عصب الحياة في العلوم التي قامت على الخطاب القرآني من تفسير وفقه وأصول وغيرها.

ونظرا لوعينا بأهمية الحقل البلاغي في دراسة القرآن الكريم، آثرنا أن يكون موضوع بحثنا في جانب من قضاياه، وهو المسمى الالتفات، فكانت صيغة العنوان:

الالتفات ودلالاته في القرآن الكريم.

ولم يكن اختيارنا لهذا النوع صدفة، إنّما يرجع للأسباب التالية:

-الميل الشخصي والرغبة في إثراء معارفنا بهذا الموضوع.

-غنى القرآن الكريم بأسلوب الالتفات.

وقد حاولنا في بحثنا الإجابة عن إشكالية مفادها:إلى أي مدى يسهم أسلوب الالتفات في خدمة الجانب الدلالي من القرآن الكريم، وفي تعزيز ظاهرة الإعجاز فيه؟

و للإجابة عن هذه الإشكالية اقتضت طبيعة البحث أن يكون في ثلاثة فصول، يسبقها مدخل تحدّثنا فيه عن الإعجاز القرآني، وخاتمة تضمنت أهم النتائج والملاحظات التي تمكّنا من تدوينها.

كان عنوان الفصل الأول: **الالتفات الضميري**، افتتحناه بتمهيد بيّنا فيه معنى الالتفات في اللغة وفي الاصطلاح، مستشهدين بأقوال العلماء، وتوقّفنا عند أهم المصطلحات التي أطلقت على هذه الظاهرة البلاغية، ضمّناه ثلاثة مباحث مقسّمة بحسب نوع الضمير ونوع الانتقال على النحو التالي:

-المبحث الأول: **جعلناه للالتفات من ضمير المتكلم:**

أ-إلى المخاطب.

ب-إلى الغائب.

-المبحث الثاني: **كان للالتفات من ضمير المخاطب:**

أ-إلى المتكلم.

ب-إلى الغائب.

-المبحث الثالث :**خصّصناه للالتفات من ضمير الغائب:**

أ- إلى المتكلم.

ب-إلى المخاطب.

أما الفصل الثاني: فهو معنون بـــ: **الالتفات في الأفعال**، بدأنا ببيان الأفعال ودلالـــة كل فعل على زمنه، شكّلناه من ثلاثة مباحث توزّعت كالآتي:

-المبحث الأول: **الالتفات من الفعل الماضي:**

أ-إلى المضارع.

ب-إلى الأمر.

-المبحث الثاني: **الالتفات من الفعل المضارع:**

أ-إلى الماضي.

ب-إلى الأمر.

ج-إلى اسم الفاعل.

د-إلى اسم المفعول.

-المبحث الثالث: **الالتفات من فعل الأمر:**

إلى المضارع.

أما الفصل الثالث: فكان تحت عنوان: **الالتفات العددي**، وضمّ ثلاثة مباحث هـــي التالية :

-المبحث الأول: **الالتفات من المفرد:**

أ-إلى المثنى.

ب-إلى الجمع.

-المبحث الثاني: **الالتفات من المثنى:**

أ-إلى المفرد.

ب-إلى الجمع.

-المبحث الثالث: **الالتفات من الجمع:**

أ- إلى المفرد.

ب- إلى المثنى.

وفي مباحث الفصول كلّها اعتمدنا منهجية واحدة في التحليل، وهي القائمة على ذكر المواضع التي ورد فيها التحوّل في الكلام، مع استعراض آراء المفسرين والبلاغيين فيه.

وفي الأخير وقفنا على **أنواع أخرى من هذا اللّون البلاغي** أهمها:

-الالتفات بين الإضمار والإظهار.

-الالتفات بين تذكير الضمير وتأنيثه.

-الالتفات في مجال الصيغ.

-الالتفات بين صيغتين للفعل الواحد.

-الالتفات بين صيغتين للاسم الواحد.

-الالتفات بين صيغتي الاسم والفعل.

-الالتفات في المعجم.

-الالتفات في البناء النحوي.

وقد سرنا في تحليل هذه النماذج على النهج الذي سرنا عليه في تحليل ما ذكرناه من نماذج للالتفات في الفصول الثلاثة من البحث.

تناولنا في كلّ هذه الفصول ما ورد في القرآن الكريم من هذه الظاهرة البلاغية، معتمدين على جهدنا الشخصي في الاستقراء، وقد اقتضى موضوع البحث أن نتّبع المنهج الوصفي للإلمام بأهم جوانب الموضوع، واتّخذنا من التحليل أداةً مساعدة على تحليل صور الالتفات

ولتحقيق مقتضيات البحث، اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع، نذكر البعض منها، أوّلها القرآن الكريم، يليها أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية لـــ " حسن طبل، "تفسير الكشاف للزمخشري، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود، البحر المحيط لأبي حيان ... ومن المعاجم استعنا بلسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز آبادي.

وخلال مشوارنا في البحث اعترضتنا جملة من الصعوبات يمكن أن نجملها في ما يلي:

-جائحة كورونا التي أصابت العالم كله بشلل تام، فكنّا نودّ التنقّل إلى خارج بجاية للحصول على مزيد من المراجع المفيدة لنا إلّا أن الرياح جرت بما لا تشتهيه سفننا.

-خطورة التعاطي مع الخطاب القرآني وإصدار أحكام بشأن أسلوبه.

وفي خاتمة هذا التقديم، ندين ببالغ الشكر والاحترام والتقدير لكل من مدّ يده لمساعدتنا سواء في الجانب العلمي أو المعنوي، بدءا بأستاذنا الفاضل المشرف على بحثنا: الأستاذ الدكتور شمون أرزقي، الذي تابع عملنا هذا خطوة خطوة، وخصه بكثير من وقته، وكان لتوجيهاته العلمية أثر كبير في إخراج البحث على هذه الصورة، فجزاه الله.

وأخيرا نرجو الله أن نحقق بهذا العمل نفعا، وبعده النجاح والتوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مدخل

الإعجاز القرآني

مدخل:

بلغ العرب في الجاهلية مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة والبيان خاصة قبيلة قريش، لكونها مكانا لمراسم الحج، إذ كانت تستقبل من كل أقطاب الجزيرة العربية أكبر تجارها، وأشهر شعرائها وأدبائها، فتقام فيها أسواق أدبية، يتم فيها التنافس على تناشد الأشعار والخطب والحكم والأمثال، كسوق عُكّاظ والمربد، ولعلّ أحسن مثال ما جرى بين النابغة وحسّان.

في ظلّ هذه الظروف جاء القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته، على لسان رسول أميّ لا يقرأ ولا يكتب، متحدّيا فصحاء العرب، بكلام يختلف عن كلامهم ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، وقد قال عزّ وجلّ:﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. [الإسراء: الآية 88].

القرآن الكريم هو كلام الله المبين المنزّل على سيد الفصحاء وخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يقف على أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة، معجزة كبرى وحجة دائمة على الخلق، حمل في طيّاته آيات محكمات، تهدي إلى الحقّ والنور للبشرية جمعاء، تضمّن عجيب نظمه ودقة تأليفه وجمال لغته وعلوّها في كلّ سورة

من سوّره، أُنزل في أوجز لفظه، فأعجزت حكمته الحكماء، و أبكمت فصاحته عدنان و قحطان، وأبهرت بلاغته العقلاء، فهو كتاب لا تفنى عجائبه، تطمئنّ إليه الأنفس، وتتغذّى به الأرواح، جعله الله تعالى رسالة خالدة على مرّ الزمان ثابتة لا تتغيّر، تحدّى المشركين ليظل آية للعالمين، فليس هناك كتاب آخر نال من العناية ما نال هذا الكتاب العظيم، ولا جرى له من الذكر مثله، فمنذ أن أنزله الله عزّ وجلّ على رسوله عليه الصلاة والسلام إلى غاية يومنا هذا لم تتوقّف الدّراسات حوله عن تحليل خطابه من جوانب مختلفة سواء اللغوية منها أم الفقهية أم التفسيرية، كما تأسّست فروع عملية خاصة به، منها ما اختصّ بالطريقة الصحيحة لتلاوته، ومنها ما اختصّ بدراسة أسباب نزوله، ومعرفة فواصله وما في أساليبه من وقف وابتداء، ومنها ما اختص بالنظر في ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، إلى غير هذا من العلوم التي قامت حول القرآن الكريم، فكان مصدرا لكثير من الدراسات اللغوية، كمّا كان مرجعا وأساسا لمساهمات اللّغويين الأوائل مثل أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه، إذ كلهم استشهدوا بآياته، فهو العنصر الأول في الاحتجاج اللغوي والمنطلق الأوّل لظهور مختلف الدراسات.

كما اهتم العلماء بالجانب الإعجازي من القرآن الكريم، وهو المتعلّق بفصاحته وبلاغته ونظمه وتراكيبه وأساليبه، وما تضمّنه من أخبار ماضية ومستقبلة، وما

اشتمل عليه من أحكام جليّة، وهذا دفاعا عنه في وجه الحاقدين عليه والمنكرين له، فظهرت دراسات مختلفة ترمي إلى بيان أثر القرآن الكريم في الذوق العربي، وتحديد الجانب الفني المميّز فيه، فتطرّقوا لمفرداته ومجازه ونظمه وإعجازه وغريبه فتنوعت المؤلفات، بدءا بإمام البيان "الجاحظ" الذي ألّف كتابا في "نظم القرآن" للرد على القائلين بأنه في مقدور العباد الإتيان بمثله لكن الله صرّفهم عن ذلك، فبيّن أنه معجز للعرب بنظمه وأسلوبه وغريب تأليفه وبديع تركيبه، ثم أتت طائفة من المفسّرين على رأسهم الزمخشري، حرصوا على أن يبيّنوا إعجاز القرآن الكريم الذي جعله الله تعالى دليلا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وبرهانا على صدق دعوته، جامعا لفنون البلاغة حاويا لأطراف الفصاحة محكما في نظمه تحدّى الفصحاء، فوقفوا أمام نظمه موقف الإعجاب والذهول فعارضوه وكذّبوه، ثم لم يلبثوا أن تابوا إلى رشدهم ودخلوا في دين الله.

كما حاول الأدباء تقليد القرآن لكنهم باءوا بالفشل وتيقنوا من أنّه بلغ الذروة ببلاغته وفصاحته وبأسلوبه القائم على حسن السّبك والتأليف، وكل ما اشتمل عليه من ألوان بلاغية مختلفة من استعارة وكناية ومجاز وإطناب وإيجاز وتقديم وتأخير، إلى غير ذلك ممّا يشكّل جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، ومنها ما يسمّى بـ "**ظاهرة الالتفات**" وهي موضوع بحثنا هذا.

الفصل الأول

الالتفات الضميري

تمهيد: تعريف الالتفات لغة واصطلاحا.

المبحث الأول:الالتفات في ضمير المتكلم.

المبحث الثاني:الالتفات في ضمير المخاطب.

المبحث الثالث:الالتفات في ضمير الغائب.

تمهيد:

تعريف الالتفات في اللغة والاصطلاح:

أ- لغة:

تحدّد المعنى اللغوي لكلمة "الالتفات" في معاجم اللغة وقواميسها، ففي معجم "العين" للخليل (ت: 170ه) جاء: «لفت اللّفت ليّ الشيء عن جهته كما تقبض على عنق إنسان فتلفته، واللفت والفتل واحد ولفت فلانا عن رأيه أي صرفته عنه، ومنه الالتفات ويقال لفت فلان مع فلان كقولك صفوه معه ولفتاه شقاه، والألفت من التيس الذي قد أعوج قرناه والتويا»[1].

كما أورد صاحب "لسان العرب" تحت مادة (ل، ف، ت) ما نصه «لفت: لفت وجهه عن القوم صرفه والتفت التفاتا، والتلفت أكثر منه، وتلفت إلى الشيء التفت إليه، صرف وجهه إليه، ولفته يلفته لفتا لواه على غير وجهه، ويقال لفت فلان عن رأيه أي صرفته عنه، ومنه

[1] – الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424،2003، ط1، (مادة ل. ف. ت)، ج8،ص221.

الالتفات: ولفته عن الشيء يلفته لفتا، صرفه، اللّفت الصّرف، يقال ما لفتك عن فلان، أي ما صرفك عنه»[1].

وجاء في "القاموس المحيط" الفيروزأبادي (ت: 817 ه): «لفته يلفته، لواه وصرفه عن رأيه، ومنه الالتفات و التلفت، واللّحاء عن الشجرة: قشره والريش على السّهم: وضعه غير متلائم، بل كيف اتّفق. واللّفت بالكسر السلجم. وشقّ الشيء وضعوه، والبقرة والحمقاء، وحياء اللّبؤة، وثنية جبل قديد بين الحرمين، ويفتح. والألفت من التيس الملتوي أحد قرنيه والأعسر، والأحمق كاللفات كسحاب، والعسر الخلق، و اللفتاء الحولاء، و العنز أعوجٌ قرناها، و اللفيتة العصيدة المغلظة أو مرقة تشبه الحيس، وهو يلفت الماشية، أي يضربها لا يبالي أيها أصاب، وهو لفته كهمزة»[2].

نستنتج من هذه التعريفات كلها، أن المادة اللغوية أو المعجمية لكلمة "الالتفات" تدور في عمومها كما نرى حول محور دلالي واحد هو التحوّل أو الانحراف عن المألوف غير المتوقع على سلوك أو وضع أو نمط من أنماط اللغة، وهو العدول أو الصرف أو اللّي.

---

[1]– أبو فضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ الغربي، بيروت، لبنان، ، 1413،1993، ط2،ج 12، ص303،301.

[2] – الفيروز آبادي، القاموس المحيط، القاهرة، مصر، ط5،مادة (ل. ف. ت)، ج1، ص214.

بعدما ألقينا نظرة على معاجم اللغة وقواميسها نلتفت إلى القرآن الكريم، ديوان اللغة العربية وبلاغتها، لنقف عند مفردة "الالتفات" وأهم المعاني التي حملتها، فنجد أنها وردت في ثلاثة مواضع أولها: قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا﴾ [يونس: الآية 78].

ذكر ابن كثير(701ه–774ه) بشأنها ما يلي: «لتلفتنا بمعنى: تثنينا عما وجدنا عليه آباءنا أي عن دين آبائنا، يقال لفت الرجل عنق الآخر إذا لواه »[1].

أما الثعالبي فأوردها في تفسيره بقوله: «وقولهم (لتلفتنا)، أي لتصرفنا وتلوينا وتردنا عن دين آباءنا...»[2].

أمّا الزمخشري(467–538ه): «فذكر أنّ معنى قوله تعالى – لتلفتنا– أي لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان ومطاوعهما الالتفات والانفتال »[3].

الموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقَطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾ [هود: الآية 81]، وثالثها في قوله عز وجلّ: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونْ﴾. [الحجر: الآية 6].

---

[1]– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، لبنان، 2004م، ج2، ص387.

[2]– الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن،الجزائر 1985م، ج2، ص251.

[3]– أبو القاسم جار الله محمود بن عمران الزمخشري، الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، الرياض، 1418ه–1998م، ط1،**ج 5** ، ص247.

وعلى هذا الأساس فإن لفظة (التفت) إذا جاء بعدها حرف جـرّ (عـن)، كانـت بمعنـى "الصرف عن الشيء"، أمّا إذا لم يأت هذا الحرف بعدها فتكون بمعنى "الإقبال على الشيء".

وجاء في الحديث النبوي "لفظ الالتفات" بمعنى اللّي والصرف، صرف الوجه يمنة ويسـرة في الصلاة إلى جهة خارجها.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الالتفات فـي الصلاة فقال: (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[1].

ب – اصطلاحا:

تعد ظاهرة الالتفات من أهمّ الفنون البلاغية الأكثر تردّدا وانتشـارا فـي القـرآن الكـريم عرفت منذ القدم، لم تحظ بدراسة مستقلة إلّا بعد فترة من الزمن، ترادفت مع مجموعـة مـن المصطلحات أهمّها: الصرف، العدول،الانصراف، التلوين،الاعتراض، الاسـتدراك، مخالفـة مقتضى الظاهر، شجاعة العربية...، لكن يبقى مصطلح الالتفات هو الأكثر شـيوعا مقارنـة بغيره، وخاصة أنّه استقلّ بمبحث من مباحث البلاغة في عصورها المتأخرة، كما أنّ اهتمـام البلاغيين به أدّى إلى تحديد طبيعة المصطلح، والكشف عن أسراره البيانية والجمالية، إضـافة إلى مقاربة المعنى اللّغوي لهذا اللّفظ بمعناه الدّلالي.

[1]– أبو عبد الله الجعفي البخاري، صحيح البخاري، المطبعة العامرة، القاهرة، 1315ه،ط، ص400.

لقد أفردت جماعة من علماء اللّغة مباحث خاصة للحديث عن أسلوب الالتفات في كتبهم، أمثال: ابن المعتز (ت: 296ه)، وقدامة بن جعفر (ت: 337ه)، والسكاكي (ت:626ه)، إذ أقحموه تارة في باب علم المعاني، وتارة أخرى في علم البيان، أو في باب علم البديع[1].

ولعلّ عالم اللّغة المعروف الأصمعي (ت: 216ه)، أوّل من سمى الظاهرة "التفاتا"، فقد حكى عن إسحاق الموصلي أنّه قال: قال لي الأصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟، قلت: وما هو؟، فأنشدني:

أتنسى إذا تودعنا سليمى بعود بشامة سقى البشام*

ثم قال: أما تراه مقبلا على شعره، إذا التفت إلى البشام فذكره فدعا له[2].

هذه الرواية تداولتها كتب التّراث والبلاغة كثيرا، ما يبيّن أنّ مصطلح الالتفات كان معروفا منذ القدم، إلّا أنّ مفهومه آنذاك يختلف عن المفهوم الذي صار عليه اليوم.

كما أنّ هناك إشارة من قبل اللّغويين القدامى إلى هذا الفنّ البلاغي، أمثال: أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت: 210ه) في كتابه "مجاز القرآن"، إذ قال: «ومن مجاز ما جاءت

---

[1]– ينظر: طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دار النهضة العربية، بيروت ،1996، ط1،ص 83.

* البشام: شجر ذو ساق وأفنان وورق ولا ثمر له.

[2]– أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الشعر والكتابة، مكتبة صيدا ،بيروت ، 1986م، دط ،ص408–409.

مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحوّلت مخاطبته إلى مخاطبة الغائب، في قوله تعالى: ﴿حَتَى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾. [يونس: الآية 22]، ومن مجاز القرآن ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد. قال عزّ و جلّ : ﴿ثُمَ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَى ۞ أَوْلَى لَكَ فأَوْلَى﴾. [القيامة: الآيات 33 – 34][1].

في قول أبي عبيدة، يظهر لنا أنّه استخدم كلمة "مجاز" مكان "الالتفات"، فهما عنده مترادفان يدلّان على معنى واحد.

أمّا ابن المعتز فاعتبر الالتفات من فنون البديع، إذ عرّفه بقوله: «هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر»[2].

الشيء الذي يلفت النظر في تعريف ابن المعتز للالتفات، أنّه حدّد محاوره الأساسية، وهي المخاطب، المتكلّم والغائب، كما إنّه لم يقيّد هذا الأسلوب بهذه المحاور الثلاثة، إنّما تجاوزها إلى أمور أخرى، إضافة إلى أنّه قدّم مصطلحا آخر يقوم مقام الالتفات وهو "الانصراف أو الصّرف" الذي ذكره أصحاب المعاجم في تعريفهم اللّغوي للالتفات، ما يدل على أنّ ابن المعتز ربط التعريف اللّغوي بالتعريف الاصطلاحي ، وهذه قفزة لم يصل إليها أحد من قبله.

[1]– أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن،بيروت ،1970، ط1،ص111.

[2]– عبد الله بن المعتز، البديع، مؤسسة الكتب الثقافية ،بغداد، 1433ه–2012م، ط1 ،ص58 .

استعمل ابن وهب (ت: 335ه) مصطلح "الصّرف" قائلا: «أمّا الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب، ومن الواحد إلى الجماعة، كقوله تعالى: ﴿حَتَى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بَرِيحَ طَيِبَة ﴾. [يونس: 22] »[1].

بيّن ابن وهب صورة أخرى من صور الالتفات تتمثّل في العدول عن الواحد إلى الجمع.

أمّا قدامة بن جعفر (ت: 337ه)، فجعل الالتفات من نعوت المعاني، وعرّفه بقوله: «ومن نعوت المعاني الالتفات، وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى فكأنّه يعترضه، إمّا شكّ فيه أو ظنّ بأنّ رادا يردّ عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه، أو يحلّ الشّك فيه»[2].

أدخل قدامة في هذا التعريف مصطلح الاعتراض فجعله من الالتفات.

ثم يأتي ضيّاء الدين ابن الأثير(ت637) ليعرض لنا موضوع "الالتفات" في صورة واضحة، محاولا بذلك كشف أسراره البلاغية، سمّاه أيضا " شجاعة العربية "، عرّفه قائلا: «هذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان... وإليها تستند البلاغة...وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة كالانتقالات من خطاب حاضر

[1]– ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، 1967، دط ،ص152.

[2]– قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مكتبة الخانجي مصر، ومكتبة المثنى بغداد، 1963م،ص53.

إلى خطاب غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك ممّا يأتي ذكره مفصّلا، ويسمّى أيضا "شجاعة العربية"،وإنّما سميّ بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذلك أنّ الرّجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره، ويتورد مالا يتورد سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختصّ به دون غيرها من اللّغات»[1].

جعل ابن الأثير الالتفات من البيان، كما أعطى له تعريفا أوسعا، لم يخصّصه في نوع واحد، إذ ذكر التفات الضمائر، كذلك التفات الأفعال. كما إنّه حصر الظاهرة في اللغة العربية دون غيرها من اللغات.

أمّا محمّد بن أحمد القرطبي (ت: 671ه)، فجاء بمصطلح جديد لم يذكر عند سابقيه وهو "مصطلح التّلوين" في تفسيره لسورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِ الْعَالَمِينْ ۞ الْرَحْمَانْ الرَّحِيمْ ۞ مَلِكِ يَوْمِ الْدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينْ ...﴾. [الفاتحة: الآيات 1-4]. رجع من الغيبة إلى الخطاب على التّلوين[2].

---

[1]- ابن الأثير، المثل السائر، المكتبة العصرية، بيروت، 1995م، دط، ج2، ص170، وينظر عبد العزيز عتيق علم المعاني (البيان البديع)، ص564.

[2]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من السنة واي الفرقان ،مؤسسة الرسالة ،بيروت، 1427ه-2006م، ط،1 ج1، ص423.

أما بهاء الدين السبكي (ت: 773ه) فقد نحا منحى واسعا في تعريف الالتفات ، إذ يقــول: «ومنهم من يجعل الالتفات نقل الكلام من حالة إلى أخرى، وجعل منه ابن النفيس في طريــق الفصاحة التعبير عن المضارع بالماضي وعكسه وجعل غيره منه الانتقال من خطاب الواحــد أو الاثنين أو الجمع لغيره، وهو أقرب شيء للالتفات المشهور لمشابهته له في الانتقــال مــن أحد أساليب الثلاثة لآخر، وفي انقسامه إلى ستّة أقسام»[1].

قدّم السبكي تعريف للالتفات تضمّن أنواعه ومحاوره الثلاثة.

الملاحظ من خلال هذه التعاريف الواردة لمصطلح الالتفات، أنّ جمهور البلاغيين يتّفقــون على أنّ الالتفات في مجمله هو العدول أو الخروج أو الانصراف من كلام إلى آخر، وبتعبيــر بسيط هو التعبير عن الكلام بضمير المتكلّم، ثمّ الانتقال عنه إلى ضمير الغائب أو المخاطــب، أو العكس، كما يمكن التعبير عنه بالماضي إلى المضارع أو الأمر أو العكس، أو التعبير عنــه بصيغة المفرد ثمّ العدول عنها إلى صيغة المثنى أو الجمع أو العكس.

ونشير إلى وجود علاقة بين التعريف اللّغوي والاصطلاحي للالتفات، فهي تدور كلها فــي معنى الصّرف والتّحوّل.

[1]– بهاد الدين السبكي،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مطبعة عيسى البابي الحلبي ،مصر،1937م،دط،ج1، ص464.

المبحث الأوّل:الالتفات من المتكلّم:

أ:إلى المخاطب:

يقوم الالتفات هنا على الانتقال أو العدول من ضمير المتكلّم إلى ضمير المخاطب، يلجأ إليه المتحدّث لحثّ السامع على الاستماع، وله عدّة أغراض بلاغية، ورد هذا النّوع من الالتفات في موضع واحد من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى على لسان الرجل المؤمن الذي جاء ينصح قومه بعد تكذيبهم: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الْذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [يس: الآيات 21- 22].

جاء القول على طريقة المتكلّم"فطرني"، وكان مقتضى السيّاق أن يتبع كلامه بالذات المتكلمة بأن يقول: "وإليه أرجع"، ولكن عبّر عنها بضمير المخاطبين في قوله: "وإليه ترجعون"، وذلك لغرض تنبيه قومه بأنّهم راجعون إلى الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى ظهور تلطّف الرجل المؤمن بالمخاطبين، بأن نصح نفسه وفي الحقيقة يريد نصحهم، فما يريد لهم هو ما يريد لنفسه[1].

كما نبّههم لأنّه مثلهم في وجوب عبادة الله عزّ وجلّ، هناك رأي آخر أقرّ بأنّ الالتفات الموجود في هذه الآية، هو التفات الخطاب، وذلك تبعا للسيّاق الذي أتت فيه الآية الأولى:

[1]-ينظر : الزمخشري، الكشاف، ص172.

﴿اتَبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا...﴾. إلى المتكلم في الآية الثانية: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

فالسيّاق يقتضي أن يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ الذِي فَطَرَكُمْ﴾، بدليل قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وذلك لغرض التلطّف.

يعتبر حسن طبل أنّ الرأي الثاني هو الأصح استنادا إلى دلالة الواو الواقعة بين الآيتين[1].

بيّن الزمخشري أنّ فائدة الالتفات في هذه الآية، هي "التلطّف"، إذ أبرز الرجل المؤمن كلامه في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم، ولا يريد لهم إلّا ما يريد لنفسه[2].

ذهب ابن الأثير مذهب الزمخشري وأعاد قوله، أشار إلى أنه ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾. [يس: الآية 25][3].

وفي الجهة المقابلة يذهب القرطبي إلى أنّ الفائدة هي الوعيد الذي يقتضي الزّجر، إذ قال: «وهذا احتجاج منه عليهم وأضاف الفطرة إلى نفسه، لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر

[1]– ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة العربية،دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ط1، ص117–118.

[2]– الزمخشري، ج5، ص172.

[3] – ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر، ج2، ص7.

والبعث إليهم، لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر، فكان إضافة النعمة إلى نفسه، أظهر شكرا وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرا»[1].

أمّا الزركشي فذهب إلى أنّ الآية أفادت التنبيه على أنّه مثلهم في وجوب عبادة الله تعالى، وله رأي حول الالتفات الوارد في هذه الآية إذ قال: «وفائدته أنّه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه، وهو يريد نصح قومه تلطّفا وإعلاما أنّه يريده لنفسه ثمّ التلفت إليهم لكونه في مقام توبيخهم ودعوتهم إلى الله. وأيضا فإنّ قومه لمّا أنكروا عليه عبادته لله أخرج الكلام عنهم بحسب حالهم، فاحتج عليهم بأنه يقبح منه أنّه لا يعبد فاطره ومبدعه، ثم حذّرهم بقوله: ﴿...وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. لذا جعلوه من الالتفات)[2].

أما السيوطي(911ه) فقد ذكر ما ذكره الزركشي من أن الفائدة في هذا الالتفات هي التنبيه على أنه مثلهم في وجوب عبادة الله تعالى[3].

أمّا أبو السعود(915ه) فذهب إلى أنّ الالتفات في هذه الآية أفاد التهديد والمبالغة فيه، إذ قال:«تلطّف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح حيث أراهم

[1]-ينظر:أبو بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ،ج15، ص18.

[2]- الزركشي:البرهان في علوم القرآن دار الحديث جامعة الأزهر، 1427ه-2006م، دط ،ج3، ، ص315.

[3] -ينظر:جلال الدين السيوطي،الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة،بيروت لبنان،1429ه-2008م ، ط1،ج3،ص229.

أنّه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما ينبئ عنه قوله: "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونْ"، مبالغة في التهديد»[1].

وممّ يبدو والله أعلم، فالآية أفادت معنى "التلطّف"لأنّه يناسب المقام والسيّاق الذي أتت به باقي الآيات، إذ ذكر أصحاب القرية الذين أراد الله تعالى لهم الهداية، فأرسل إليهم رسولين كذّبوهما، فأرسل إليهم الثالث، فلو أراد هلاكهم لعذّبهم بعد تكذيب أوّل رسول لهم. قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ۞إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾.[يس: الآية 13-14]. كما أن حرص الرجل على قومه بدعوتهم إلى الإيمان بالله عز وجل ووجوب عبادته دال على أن الفائدة إنما هي التلطّف، وممّا يدل على ذلك أيضا قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ۞ بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.[يس: الآيات26- 27]. فالدلالة العامة لهذه الآيات أفادت التلطّف أكثر من الأغراض الأخرى.

وممّا هو جدير بالإشارة إليه، أنّ بعض البلاغيين قد مثّلوا لهذا الالتفات (الالتفات من التكلّم إلى الخطاب) بمواضع أخرى، إضافة إلى المواضع السّابقة، وذلك في القراءات القرآنية.. ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ

[1]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم الى مزايا القران الكريم ،دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، دط ،د س، ج7، ص163،164.

عَلَيْهَا مِنْ الشَاهِدِينَ﴾.[المائدة: الآية 113]، مثّلوا بها في موضع (نعلم ... نكون)، وقرئت (تعلم ... تكون). وفي قوله أيضا سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ ثُمَ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِي رَحِيم وَدُودٌ﴾.[هود: الآية 90]. فقد خاطبهم في البداية بضمير المخاطب "هم" في قوله "ربكم"، ثم التفت إلى ضمير المتكلم في قوله "إنّ ربي".

كما مثّل الزركشي لهذا الموضع بقول الحق تبارك وتعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿... فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُنْيَا۞إِنَّا آمَنَا بِرَبِنَا...﴾.[طه: الآيات 72 – 73]. فقد التفت السياق الكريم من الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَاقْضِ ما أَنْت قَاضٍ ﴾.[طه: الآية 72]. إلى المتكلم في قوله: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِنَا﴾[1]، وأتبعه الزركشي بقوله: «وهذا إنّما يتمشى على قول من يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحدا، فأمّا من اشترطه فلا يحسن أن يمثل به، ويمكن أن يمثل بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.[يونس: الآية 21]. على أنّ سبحانه نزل نفسه منزلة المخاطب»[2].

[1]– حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ، ص118.و ينظر:طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ،ص110،111.

[2]– عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن،ج3، ص317.

نفهم من قول الزركشي أنّ المراد بالالتفات أن لا يكون واحدا، ومن اشترط فيه هذا الأمر فلا يعد التفاتا، وبالتالي لا يمكن الأخذ والتمثيل به. وعلى هذا الأساس فالآية الأولى لا يوجد فيها موضع الالتفات، وذلك لأن المخاطب فيها ليس المتكلّم.

أضاف الزركشي مواضع أخرى لهذا النّوع من الالتفات في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً۝فَغَفَرَ لَكَ اللَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَرَ ... ﴾.[الفتح: الآية 1 –2]. وفي قوله كذلك سبحانه: ﴿... رَحْمَةً مِنْ رَبِكَ ...﴾.[الكهف: الآية 82. وقوله: ﴿...كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِكُمْ ...﴾.[سبأ: الآية 15]. وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَكُمْ تَضَرُعَا وَخِفْيَةً﴾.[الأعراف: الآية 55]. وقوله: ﴿... وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ...﴾.[الحج : الآية 77].

ما يراه كثير من الباحثين بشأن هذه الآيات الكريمات، أنّ صورة الالتفات فيها غير واردة فيها، ومن الخطأ التمثيل والاستشهاد بها، فمثلا آية الفتح التي يقول فيها تعالى: ﴿... رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ... ﴾، لا يعود ضمير المخاطب فيها على الخالق سبحانه وتعالى، حتى يمكن أن نقول إنّه انزياح أو عدول عن المتكلم، شأنه شأن الآيات الأخرى التي لم تُسبق بسياق يعود على الذّات المتكلمة[1].

[1]– ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص118.

أمّا السيوطي فقد مثّل للالتفات من التكلم إلى الخطاب، بقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَلاَةَ وَاتَقُوهُ وَهُوَ الذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. [الأنعام: الآية 72].

وفي الأخير نستنتج أنّ هذا النوع من الالتفات، أي الالتفات من المتكلم إلى الخطاب، ورد في موضع واحد في القرآن الكريم، وما عدا هذا الموضع، فهو عبارة عن قراءات قرآنية مختلفة.

ب:إلى الغيبة:

يقوم على الانتقال من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ،ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم لأغراض متعدّدة ذكرها البلاغيون والمفسرون، نذكر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الْدُنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ۞وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الْصَّالِحَاتِ فَيُوْفِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَالله لَا يُحِبُ الْظَّالِمِينَ﴾. [آل عمران: الآيات 56-57].

موضع الالتفات في هذه الآية هو قوله تعالى "فيوفيهم" بلفظ الغيبة بعد أن كان بلفظ التكلم في قوله تعالى "فأعذبهم" أشار إليه المفسرون وحدّدوا فائدته، من بينهم أبو حيان بقوله: «وفي الآية التي قبلها قال تعالى "فأعذبهم" فأسند الفعل إلى ضمير المتكلم وحده، وذلك ليطابق قوله

تعالى "فأحكم بينهم"[1] . وفي هذه الآية قال "فيوفيهم" بالياء على قراءة حفص وورش، وذلك على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة للتنويع في الفصاحة»[2].

الفائدة من هذا الالتفات لدى أبي حيّان تتمثّل في التنويع في الفصاحة.

كذلك قوله تعالى:﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى۝إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى۝تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾. [طه: الآيات 1-4].

موضع الالتفات هو في قوله تعالى "ممن خلق" بصيغة الغيبة بعد أن كان بلفظ المتكلم في قوله سبحانه "أنزلنا" ذكر المفسرون والبلاغيون فوائد هذا الالتفات، من بينهم الزمخشري يقول: «فإن قلت: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب؟ قلت: غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أن هذه الصفات إنما تسردت مع لفظة الغيبة، ومنها أنه قال أوّلا: "أنزلنا" ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين...»[3].

الغرض من هذا الالتفات عند الزمخشري هو الافتنان في الكلام، وذلك لإضفاء الحسن والروعة عليه، كذلك تعظيم شأن الله تعالى وتمجيده.

---

[1]- نشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. [آل عمران: الآية 55].

[2]- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1413ه-1993م، ط1،ج3، ص171.

[3]- الزمخشري، الكشاف، ج4، ص67.

تناول الرازي هذا الموضع بالشرح، إذ يقول: «فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور: أحدها أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلّا مع الغيبة، وثانيها أنّه قال أوّلا "أنزلنا" ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين، وثالثها: يجوز أن يكون "أنزلنا" حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه»[1].

يظهر لنا أنّ الفائدة من هذا الانتقال عند الرازي هي التعظيم.

قوله جلّ في علاه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَذِّي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ يُحْيِ وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ النَبِّيِ الْأُمِيِّ الَذِّي يُؤْمِنُ بِالله وكَلِمَاتِهِ وَاتَبِعُوهُ لَعَلَكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. [الأعراف: الآية 158].

موضع الالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى "إنّي رسول الله إليكم"، أتى الكلام على صيغة المتكلم ثم تحول إلى صيغة الغيبة في قوله تعالى "فأمنوا بالله ورسوله".

فصّل حسن طبل هذه الصورة بقوله: «فلقد جرى الأسلوب على طريقة التكلم في إعلان الرسول صلى الله عليه وسلم عن رسالته للناس "إنّي رسول الله إليكم"، ثم تحول إلى طريق

[1]- محمد الرازي، تفسير الكبير ومفاتيح الغيب،دار الفكر، 1401ه-1981م، ط1، ج22، ص5.

الغيبة – الاسم الظاهر– عند دعوتهم إلى الإيمان "فآمنوا بالله ورسوله"، إذ لو جرت الآية الكريمة على نسق واحد لقيل "فآمنوا بالله وبي"»[1].

وهذا ما ذهب إليه الزمخشري في قوله: «فإن قلت: هلا قيلا: فآمنوا بالله وبي بعد قوله "إنّي رسول الله إليكم"؟ قلت: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به وإتباعه هو الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائنا من كان، أنا أو غيري، إظهارا للنصفة وتفاديا من العصبية لنفسه»[2].

حصر الزمخشري الغرض في مقصدين هما: الأول إجراء تلك الصفات علي الرسول عليه الصلاة والسلام ، والثاني إظهار النصفة وتفادي العصبية لنفسه.

وقد ذكر البلاغيون فيما يخص هذه الآية، أن التحول الذي جرى فيها تضمن نكتتين الأولى الدلالة على أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يدعو للإيمان به لذاته، بل لإتباعه بوصفه

[1]– حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص109.

[2]– الزمخشري، الكشاف، ج2، ص519.

رسولا بعثه الله تعالى لهداية الناس، الثانية: إجراء الصفات على الرسول صلى الله عليه وسلم لكونه نبيا أميّا يؤمن بالله تعالى[1].

من مواطن هذا الالتفات أيضا، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ۞وَهُوَ الَذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فُلْكٍ يَسْبَحُونَ﴾. [الأنبياء: الآيات31- 33].

صاغ الله تعالى دلائل قدرته في قالب الالتفات، إذ جاء السياق في الآية الأولى والثانية على طريقة المتكلم في قوله تعالى "وجعلنا"، ثم تحول إلى الغيبة في الآية الثالثة في قوله سبحانه "وهو الذي خلق".

شرح حسن طبل هذا الموضع لاحظ أن هناك عدولا معجميا تمثّل في ورود الفعل "خلق" في الآية الثالثة دون الفعل "جعل" الذي ورد ثلاث مرات في الآيتين الأولى والثانية، توقف عند سر هذا العدول مستشهدا ببعض المفسرين وصولا في ذلك إلى تحديد فائدة الانتقال من ضمير المتكلم إلى الغيبة، وهي ذكر عظمة الله وقدرته، يقول: «... وبناء على ذلك نستطيع القول إن نكتة العدول عن ضمير التكلم في "جعلنا" إلى ضمير الغيبة في "خلق"، هي ملائمة

[1]- لمزيد من التوضيح،ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص109.

طريق التكلم (وهو قرن الحضور والمشاهدة) لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين، وملائمة طريق الغيبة (وهو قرين التواري والخفاء) لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة ...)»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ۞لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيَدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. [يس: الآيات 34 –35].

التفات من ضمير المتكلم في قوله تعالى "وجعلنا ... فجّرنا"، إلى ضمير الغائب في قوله سبحانه:"ليأكلوا...عملته"، فسر الزمخشري في قوله: «قرئ: "وفجرنا" بالتخفيف والتثقيل ... وقرئ "ثمره" بفتحتين وضمتين وضمة وسكون، والضمير لله تعالى، والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ... "وأصله من ثمرنا" كما قال تعالى "وجعلنا وفجرنا"،فنقل الكلام من التكلم الى الغيبة على طريقة الالتفات ويجوز أن يرجع إلى النخيل ... ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات»[2].

نستنتج من تفسير الزمخشري أن المقصد من الالتفات هنا هو إظهار نعم الله عزّ وجلّ على أهل الجنة للترغيب فيها.

[1]– المرجع السابق، ص109–110–111.

[2]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص176،177.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا۝لِيَسْأَلَ الْصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. [الأحزاب: الآيات 7-8].

جاء الكلام في الآية الأولى بصيغة ضمير المتكلم في قوله سبحانه "أخذنا" ثم عدل في الآية الثانية إلى التعبير بصيغة الغائب في قوله تبارك وتعالى "ليسأل"، وقد وضّح "أبو السعود" هذه الصورة مبينا المقصد منها، يقول: «كما ينبئ عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة، أي فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء، ووضع الصادقين موضع ضميرهم للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون فيها سئلوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه، أي ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوا لقومهم أو عن تصديقهم إياهم تبكيتا لهم»[1].

الفائدة من خلال هذا القول هي الإيذان بصدق الأنبياء في تبليغهم للرسالة التي بعثوا من أجلها.

كما ورد في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الْرَسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوَابًا رَحِيمًا﴾. [النساء: الآية 64].

[1]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج7، ص92.

التفات تمثل في قوله تعالى "أرسلنا" جاء بصيغة المتكلم ثم تحول الكلام إلى صيغة الغائب في قوله سبحانه "استغفروا".

بيّن أبو السعود الغرض منه قائلا: «... استغفرت لهم، إنما قيل " واستغفر لهم الرسول على طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعته في حيز القبول»[1].

الفائدة إذا هي تفخيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام و تعظيما له.

المبحث الثاني: الالتفات من المخاطب:

أ:إلى المتكلم:

يمثل صورة أخرى من صور الالتفات، يقوم على التحول من ضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم، وذلك لحثّ السامع وبعثه على الاستماع، وخلال بحثنا عن الأمثلة القرآنية التي وردت تحت هذا المبحث لاحظنا أنها قليلة، نأخذ على سبيل المثال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا۝إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا﴾. [طه: الآية 73].

1 – المرجع السابق، ص197.

نلاحظ من خلال هذه الآية أن السياق التفت من الخطاب في قوله تعالى "فاقض ما أنت قاض"، إلى المتكلم في قوله عزّ وجل "إنّا آمنا بربنا"، وضح الزركشي هذه الآية إذ يقول: «وهذا إنما يتمشى على قول من لم يشترط أن يكون المراد بالالتفات واحد، فأما من اشترطه فلا يحسن أن يمثل به»[1].

نفهم من قول الزركشي أنه لا يشترط في أسلوب الالتفات أن يكون الضمير عائدا لواحد، ومنها كذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ الله أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكِرُونَ﴾. [يونس:الآية21]،فقد عدل السياق الكريم من المخاطب في قوله تعالى "قل الله"إلى المتكلم في قوله"رسلنا". يقول: «على أنه سبحانه نزّل نفسه منزلة المخاطب»[2].

كما اعتبر صاحب كتاب "الكافي"«قوله تعالى: "واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود" التفات حيث عبّر عن الذات أوّلا بطريق الخطاب فقال: "واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه"، ثم عبرنا عنها ثانيا بطريق التكلم، فقال "إنّ ربي رحيم ودود"»[3].

---

[1]– الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص822.

[2]– المرجع نفسه ، ص822

[3]– عيسى علي العاكوب، علي سعد الشتيوى، الكافي في علوم البلاغة العربية (المعاني، البيان، البديع)، الجامعة المفتوحة،1993، دط ،ص151،152.

ب:إلى الغائب:

يقوم هذا الالتفات على الانتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب، وذلك لأغـراض وفوائد مختلفة يحدّدها السيّاق والمقام، ورد هذا النمط من الأسلوب فـي مواضـع عـدّة مـن القرآن الكريم، وهذا ما أضفى عليه الرونق والجمال.

نذكر على سبيل المثال قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الْذِي يَسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وِالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِـي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُـلِ مَكَـانٍ وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الْدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَ مِنَ الْشَـاكِرِينَ﴾. [يونس: الآية 22].

بدأت الآية الكريمة بتوجيه الكلام إلى المشركين "... يسيّركم ... كنتم"، ثمّ تحوّل المقام إلـى الإخبار عنهم بضمير الغيبة "... وجرين بهم"، وذلك لأغراض متعدّدة وردت عند المفسـرين والبلاغيّين، من بينها قول الزمخشري:«... فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطـاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منهـا ويسـتدعي مـنهم الإنكـار والقبيح ...»[1].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص126.

يتّضح من هذا القول أنّ الفائدة هنا هي مبالغة المشركين في إنكار نعم الله عزّ وجل وكفرهم به كما أفادت الآية معنى التخصيص ،وذلك بأن كان الخطاب في البداية موجّها لعامة الناس مؤمنين كانوا أم كافرون، ثم خصّص تعالى الفئة الكافرة بضمير الغائب لذمّهم ومن بديع الأسلوب في الآية أنّها لما كانت بصدد ذكر النّعم جاء تعالى بضمير المخاطب الصالح للجميع، ولمّا أرادت تخصيص المشركين، عدّلت من الضمير الأوّل إلى ضمير الغيبة، وهذا ضرب من الالتفات لغرض الابتلاء والتخويف[1].

كما نجد هذا النوع من الالتفات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابِ الْسَبْتِ وكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. [النساء: الآية: 47].

موضع الالتفات في قوله تعالى "نلعنهم" جاءت بلفظ الغيبة بعد أن كان السياق واردا بلفظ الخطاب في قوله تعالى "آمنوا ... معكم"، أشار إليه المفسرون وكشفوا عن غايته ،في مقدمتهم الطبري، إذ يقول: (يعني بقوله جلّ ثناؤه "أو نلعنهم" أي نلعنكم فنخزيكم ونجعلكم قردة كما لعنّا أصحاب السبت". يقول كما أخزينا الذين اعتدوا في السبت من أسلافكم قبل ذلك على وجه الخطاب في قوله: "آمنوا بما نزّلنا مصدقا لما معكم"، وقد يحتمل أن يكون معناه:

[1]-ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير،، الدار التونسية، 1984 ، ج11، ص135-136.

من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها أو نلعن أصحاب الوجوه، فجعل الهاء والميم في قوله "أو نلعنهم من ذكر أصحاب الوجوه" إذ كان في الكلام دلالة على ذلك)[1].

يتبين لنا من خلال هذا القول أنّ الطبري أشار إلى موضع الالتفات في هذه الآية دون أن يصرّح باسمه أو حتى الإشارة إلى غايته وغرضه.

كما سار الزمخشري مسار الطبري في شرحه لهذه الآية، إذ يقول: «فإن قلت: لمن الراجع في قوله: "أو ألعنهم"؟ قلت: للوجوه إن أريد الوجهاء، أو لأصحاب الوجوه، لأن المعنى من قبل أن نطمس وجوه قوم أو يرجع إلى: "الذين أوتوا الكتاب" على طريقة الالتفات)[2].

كما حمّل محمد الرازي على هذه الآية مسائل أهمّها: أن الله تعالى أمر اليهود بالإيمان بعد مكرهم، وهذا الأمر مقرون بالوعيد الشديد على الترك، إذ يقول: «... أنّه تعالى لم يقل: من قبل أن نطمس وجوهكم، بل قال: "من قبل أن نطمس وجوها" وعندنا أنه لابد من طمس في اليهود أو مسخ قبل قيّام الساعة, وممّا يدل على أنّ المراد ليس طمس وجوههم بأعيانهم إثم طمس وجوه غيرهم من أبناء جنسهم قوله: "أو نلعنهم" فذكرهم على سبيل المغايبة، ولو كان

[1]– الطبري، جامع البيان عن تأويل آيات القرآن، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1415ه–1994م، ط1،ج5، ص124.

[2]– الزمخشري، الكشاف، ج2، ص89.

المراد أولئك المخاطبين لذكرهم على سبيل الخطاب وحمل الآية على طريقة الالتفات وإن كان جائزا إلّا أنّ الأظهر ما ذكرناه»[1].

الغرض من هذا اللّون البلاغي، هوالوعيد الشديد والتنبيه والتهديد.

أمّا أبو حيّان فذهب إلى أنّ الغرض من هذا الالتفات هو التأنيس والاستدعاء إلى الإيمان، وذلك من خلال السياق الذي وردت فيه باقي الآيات وهذا ما يبيّن رحمة الله بعباده[2].

كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. [النحل:الآيات 15-16].

موضع الالتفات في هذه الآية هو: "هم يهتدون" بصيغة الغيبة بعد أن كان الكلام بصيغة الخطاب في قوله تعالى "تميد بكم ... لعلكم تهتدون" وذلك لفائدة التخصيص، إذ ذكر الزمخشري أن الكلام تلوّن بهذا الأسلوب لأن قريش كان لهم معرفة بعلم النجوم، فقال: «فإن قلت: قوله: "وبالنجم هم يهتدون" مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه (النجم) مقحم فيه (هم)، كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون، فمن المراد ب (هم)؟ قلت: كأنه أراد

[1]- محمد الرازي ، ج10،ص126-127.

[2]- ينظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج3، ص665.

قريشا، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم فخصّصوا»[1].

يرى محمد الطاهر ابن عاشور أنّ الله تعالى عدل عن لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة عن طريق الالتفات، وذلك لتخصيص أصحاب الملاحة في هدايتهم بهذه النجوم دون غيرهم[2].

ومن مواضع هذا النوع من الالتفات قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ۝وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾. [الأنبياء: الآيات 92-93].

موضع الالتفات هنا هو قوله سبحانه :"وتقطعوا" بلفظ الغيبة بعد أن كان بلفظ الخطاب في قوله تعالى:"أمتكم ... فاعبدون"، وقد جمع هذا الموضع أغراضا كثيرة شملتها هذه الآية، وفي هذا الصّدد يقول الزمخشري: «والأصل: وتقطعتم إلّا أن الكلام حرف على الغيبة على طريقة الالتفات كأنّه يَنْعِي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، كما يتوزّع الجماعة الشيء ويتقاسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب، تمثيلا لاختلافهم

[1]- الزمخشري، الكشاف، ج3، ص429.

[2]- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج14، ص122.

فيه، وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم»[1].

يتبيّن من خلال هذا القول أنّ الغرض من هذا الالتفات هو التوبيخ لهم على ما فعلوه من تقطيع أمر دينهم إلى أحزاب شتى وهو تقبيح لفعلهم هذا.

كما بيّن محمّد الطاهر ابن عاشور هذا الموضع وفسره على أنّ الواو في "تقطعوا" عائد على المشركين أو على أمم الرسل بعد أن كان الكلام موجّها إلى المخاطبين، وبهذا يكون انتقال من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أقوامهم أو الذين جاءوا بعدهم، فحدث هناك التفات لغرض تبيان ضلال المشركين ومخالفتهم للرسل، وعدولهم عن دين التوحيد كونهم تفرّقوا إلى فرق متعدّدة، واتّخذوا آلهة متعدّدة يعبدونها[2].

قوله تعالى كذلك: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. [النور: الآية 64].

موضع الالتفات هنا هو قوله تعالى: "يرجعون ... فينبّئهم"، ورد الكلام بلفظ الغيبة بعد أن كان بلفظ الخطاب في قوله تعالى: "قد يعلم ما أنتم عليه"، لم يشر المفسرون إلى الغاية من

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص164.

[2]–ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج17، ص141–142.

هذا الالتفات، بل اكتفوا بعرض صوره، وهل كان الأمر خاصا بالمنافقين فقط أم بعامة الناس.

يقول الزمخشري: «والخطاب والغيبة في قوله: "قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه" يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون "ما أنتم عليه" عاما "ويرجعون" للمنافقين، والله أعلم»[1].

من الآيات التي ورد فيها أسلوب الالتفات أيضا، قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْتُمْ مِنْ رِّبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ الله وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُضْعِفُونَ﴾. [الروم: الآية 39].

الالتفات هنا في قوله تعالى "فأولئك هم المضعفون" جاء الكلام بضمير الغائب بعد أن كان بضمير الخطاب في قوله "آتيتم ... تريدون" تطرّق إليه المفسرون ووقفوا عند غايته، من بينهم الزمخشري الذي يقول: «وقوله تعالى: "فأولئك هم المضعفون" التفات حسن كأنه قال الملائكة وخواص خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون، فهو أصح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون. والمعنى: المضعفون به لأنه لابد من ضمير يرجع إلى

[1]– الزمخشري،الكشاف ، ج4 ص329.

(ما)، ووجه آخر: وهوأن يكون تقديره: فمؤتوه أولئك هم المضعفون، والحذف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مأخذ، والأول أملا بالفائدة»[1].

الزمخشري يشير إلى أنّ الالتفات أتى لغرض المبالغة في مدح ذلك القوم.

أمّا القرطبي ففسّرها قائلا: «وقوله تعالى "وما آتيتم من زكاة" قال ابن عباس: أي من صدقة. وقوله تعالى "تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون" أي ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر، وقال: "فأولئك هم المضعفون" ولم يقل: فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة، وفي معنى المضعفين قولان: أحدهما أنّه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا، والآخر أنّهم قد أضعف لهم الخير والنعم. أي: هم أصحاب أضعاف»[2].

الفائدة من هذا الالتفات عند القرطبي هي مضاعفة الحسنات والخير والنعم لذلك القوم.

كما أن هناك من أشار إلى غرض آخر وهو التعميم، كما هو الحال عند النسفي (ت701ه) فيقول: «التفات حسن لأنه يفيد التعميم كأنه قيل: من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين»[3].

---

[1]– المرجع السابق، ص581.

[2]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص441.

[3]– النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، مكتبة نزار مصطفى، الباز، دط دس ،ج3، ص275.

وهناك من يقول إنه أتى لغرض التعظيم، ومن هؤلاء البيضاوي (ت791ه) إذ يقول: «... والالتفات فيه للتعظيم كافة خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفا بحالهم، أو للتعميم كأنه قال:فمن فعل ذلك فأولئك هم المضعفون»[1]

المبحث الثالث: الالتفات من الغيبة:

أ:إلى المتكلم:

هو قسم آخر من أقسام الالتفات يقوم على العدول أو الانتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، يتضمن أغراضا مختلفة باختلاف السياق، ورد في القرآن الكريم كثيرا، نذكر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى۞كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾. [طه: الآيات 53-54].

موضع الالتفات هنا هو قوله تعالى: "فأخرجنا" بصيغة المتكلم بعد أن كان بصيغة الغيبة في قوله تعالى "جعل ... سلك ... وأنزل".

وقد بيّن المفسرون فائدة هذا التحول، إذ يقول الزمخشري: «يقول الله عزّ وجلّ "فأخرجنا" انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما ذكرت من الافتنان والإيذان بأنّه مطاع

[1]- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الرشيد ،دمشق بيروت، 1421ه-200م، ط1،ج4، ص337.

تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء على إرادته ...، وفيه تخصيص أيضا – بأن نحن نقدر على مثل هذا، ولا يدخل تحت قدرة أحد »[1].

أشار الزمخشري إلى أنّ الغرض من هذا الالتفات في الآية هو تخصيص الطاعة لله سبحانه وتعالى دون غيره وتعظيم شأنه عز وجل، وهذا الأخير يوجب على الناس طاعته والانقياد لأوامره.

الشيء نفسه عند أبو حيّان، إذ يقول: «يقول الله تعالى: "فأخرجنا" التفات من الضمير الغائب في "جعل" ... "سلك" إلى ضمير المتكلم لمعظم نفسه ... وفي هذا الالتفات تخصيص بأن نحن نقدر على مثل هذا، ولا يدخل تحت قدرة أحد»[2].

نجد محمد الطاهر ابن عاشور قد أشار إلى هذا الالتفات قائلا: «والعدول عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله "فأخرجنا" التفات وحسنه هنا أنه بعد أن حجّ المشركين بحجة انفراده بخلق الأرض وتسخير السماء مما لا سبيل بهم إلى نكرانه ارتقى إلى صيغة المتكلم المطاع، فإن الذي خلق الأرض وسخر السماء حقيق بأن تطيعه القوى والعناصر»[3].

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص86–87.

[2]– أبو حيان، الحر المحيط، ج6، ص234.

[3]– محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص237–238.

بيّن صاحب القول أنّ من عادة القرآن التفنّن في الأغراض، وذلك لتجديد نشاط الأذهان، وهذه الآية حملت أسلوب الالتفات على شكل نكتة حسنة، وذلك لغرض تعظيم شأن الله تعالى، وذلك بذكر نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، وما على الإنسان إلّا الخضوع إليه وعدم نكرانه.

ذكر هذا الأسلوب كذلك في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾. [النمل: الآية 60].

موضع الالتفات هنا هو في قوله تعالى "فأنبتنا" ثم إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم بعد أن كان السياق قبلها متضمنا لضمير الغيبة في قوله تعالى "خلق" ... و"أنزل"،فسّره "الزمخشري بقوله": فإن قلت: أي نكتة في نقل الأخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله "فأنبتنا"؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته والإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة ...لا يقدر عليه إلّا هو وحده)[1].

أفاد هذا الالتفات عند الزمخشري التخصيص، أي تخصيص الله سبحانه بصفة الإنبات من دون غيره.

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص464.

الرّازي أيضا فصّل في هذا الموضع فقال:«يقال: ما حكمة الالتفات في قوله "فأنبتنا"؟ جوابه أنّه لا شبهة للعاقل في أن خالق السماوات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلّا الله تعالى، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجر هو الإنسان، فإن الإنسان يقول: أنا الذي ألقى البذر في الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة، فلما كان هذا الاحتمال قائما لا جرم أن زال هذا الاحتمال فرجع من لفظة الغيبة إلى قوله "فأنبتنا" وقال "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها" لأن الإنسان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب والتشميس، ثم لا يأتي على وفق مراده والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته، فكيف يكون فاعلا لها، فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا »[1].

الشيء نفسه عند أبي حيان يقول: «يقول الله تعالى "فأنبتنا" وهذا التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة، دالا على اختصاصه بذلك، وأنه لم ينبت تلك الحدائق المختلفة الأصناف ... وقد رشح هذا الاختصاص بقوله "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها"»[2].

يتضح أن جميع المفسرين اتفقوا على أن الفائدة من هذا الالتفات هي التخصيص.

[1]– محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج24، ص206.

[2]– أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص84.

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٌ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحِمْرٌ مُخْتَلِفُ أَلْوَانَهَا وَ غَرَابِيبٌ سُودٌ﴾. [فاطر: الآية 27].

التفات بلفظ المتكلم في قوله تعالى "فأخرجنا" بعد أن كان بلفظ الغيبة في قوله تعالى "أنزلنا".

تحدّث المفسرون عن هذا الموضع أمثال الرازي يقول في هذا الصدد: «الأولى : قال "أنزلنا" وقال "أخرجنا"، وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول: قال الله تعالى "ألم تر أن الله أنزل" فإن كان جاهلا يقول: نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له: فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه أنّه بالطبع، فهو بإرادة الله. فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم، ووجه آخر: هو أن الله تعالى لما قال "إن الله أنزل" علم الله بدليل وقرب المتكلم فيه إلى الله تعالى، فصار من الحاضرين فقال له: "أخرجنا" لقربه. ووجه ثالث: الإخراج أتمّ نعمة من الإنزال، لأن الإنزال لفائدة الإخراج، فأسند الأتمّ إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب»[1].

أشار الرازي إلى ثلاثة أوجه تضمّنها الموضع الأولى أن الإخراج لا يكون إلّا بإرادة الله، أمّا الثانية فتمثلت في قرب المتأمل من الله تعالى، أمّا ثالثها فهي إسناد الله تعالى نعمة الإخراج إلى ذاته سبحانه.

[1]– محمد الرازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص20.

وخلاصة الكلام أن الفائدة في هذا الموضع هي الاستدلال على قدرة الله تعالى، ومناسبته للصفات.

ذهب أبو حيّان إلى ما أشار إليه الرازي في الوجه الثالث فقال: «وخرج من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله "فأخرجنا" لما في ذلك من فخامة، إذا هو مسند للمعظم المتكلم، لأن نعمة الإخراج أتم من نعمة الإنزال لفائدة الإخراج، فأسند الأتمّ إلى ذاته تعالى بضمير المتكلم، وما دونه بضمير الغائب»[1].

الفائدة عند صاحب هذا القول تتمثّل في الفخامة والتعظيم.

الشيء نفسه عند الشعراوي، إذ يقول: «وتلحظ في سياق الآية أن الحق سبحانه لمّا تكلم عن إنزال المطر من السماء قال "أنزل" بصيغة ضمير الغائب، لكنه لما تكلم عن إخراج الثمرات قال "فأخرجنا" فنقلنا إلى ضمير الجماعة المتكلمة الدّال على التعظيم...»[2].

كما نجد هذا النوع من الالتفات في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. [الإسراء: الآية 1].

---

[1] – أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص296.

[2]– الشعراوي، تفسير الشعراوي دار أخبار اليوم، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، المجلد الأول، 3092ه-1991م، دط ،ص12493.

موضع الالتفات هنا هو قوله تعالى "باركنا" جاء بصيغة المتكلم بعد أن كان بصيغة الغائب في قوله تعالى "أسرى" أشار إليه صاحب الكشاف بقوله: «يقول تعالى: "باركنا حوله" يريد بركات الدين والدنيا، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحي، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة وقرأ الحسن "ليريه" بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل "أسرى ثم باركنا ثم ليريه"، على قراءة الحسن: ثم "من آياتنا" ثم "إنه هو"، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة»[1].

يظهر لنا أن الفائدة من هذا الالتفات هي التعظيم لبركات وآيات الله.

ب:إلى المخاطب:

يقوم الالتفات هنا على الانتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب، يلجأ إليه المتكلم لغرض التفنّن في الكلام ولفت السّامع للإصغاء،يفهم معناه من خلال الإمعان الجيد في المعنى المقصود[2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص493.

[2]– ينظر: عبد العزيز عتيق، (علم المعاني، البيان، البديع)، ص565–566.

ورد هذا النّوع من الالتفات في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، نذكر منها على سبيل المثال قوله عزّ وجلّ: ﴿الْحَمْدُ للَهِ رَبِ الْعَالَمِينَ*الْرَحْمَانْ الْرَحِيمِ*مَالِكِ يَوْمِ الْدِينِ*إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. [الفاتحة: الآيات 1-4].

موضع الالتفات في هذه الآيات هو: "إيّاك نعبد وإيّاك نستعين"، فقد عدل وتحوّل الكلام من لفظ الغيبة المتحقق في "الحمد لله" إلى لفظ الخطاب المتحقق في "إيّاك"، وقد تعدّدت آراء المفسّرين حول الغرض من هذا التحوّل من أسلوب إلى آخر.

فالزّمخشري مثلا بيّن فائدة هذا التغيّر في الأسلوب، وفصّل في خصوصيات هذا الموضع قائلا: «ذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرّفهم فيه. ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السّامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختصّ مواقعه بفوائد، وممّا اختصّ به هذا الموضع: أنّه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميّز بتلك الصفات، فقيل: إِيَّاكَ يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له لذلك التميّز الذي لا تحق العبادة إلّا به»[1].

[1]- الزمخشري، الكشاف، ج1، ص120.

يتّضح من هذا القول أنّ الزّمخشري اعتبر الكلام الذي يوقظ نشاط السامع، هو الذي ينتقل من أسلوب إلى آخر أكثر من الذي يُجرى على أسلوب واحد، ففصّل القول في هذه الآية جاعلا لكل موضع فائدة، ثمّ شرع في بيان فائدة هذا الموضع المتمثّل في التعظيم والثناء والخضوع والاستعانة بالله.

إضافة إلى هذا نجد الشّعراوي فسّر هذه الآية بقوله: «... فالله سبحانه وتعالى حين يقول "الْحَمْدُ لله رَبِ العَالَمِينْ" غيّب و"الْرَحْمَانْ الْرَحِيمِ" غيّب و"مَالِكِ يَوْمِ الْدِينِ" غيّب، وكان السيّاق اللّغوي يقتضي أن يقال إيّاه نعبد، وكان الله سبحانه وتعالى غيّر السيّاق ونقله من الغائب إلى الحاضر. وقال: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ"، فانتقل الغيب إلى حضور المخاطب، فلم يقل "إيّاه نعبد" ولكنه قال: "إِيَّاكَ نَعْبِدِ". فأنت في حضرة الله سبحانه وتعالى، الذي غمرك بالنّعم ... فإذا لم تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التي تحسّها وتعيش فيها، فاحذر من مخالفة منهجه لأنّه "مَالِكِ يَوْمِ الْدِّينْ"»[1].

أي أنّ الله سبحانه وتعالى استحضر كل صفاته التي فيها نعم الربوبية والرحمة، فانتقلت بذلك من صفات الغيب إلى صفات المخاطب، حتى يتجنّب النّاس مخالفتها، وعندما تقرأ قوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينْ" فالعبارة هنا تفيد الخصوصية[2].

---

[1]–الشعراوي،تفسير الشعراوي، ص78.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص.78

بمعنى تخصيص العبادة لله وحده لا شريك له، ونفي العبودية لغير الله.

كما تحدّث البلاغيّون عن فائدة هذا الموضع، منهم ابن الأثير، إذ يقول: «والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب، لا يكون إلّا لفائدة اقتضته ... فالرجوع من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى في سورة الفاتحة: "إيّاك نعبد وإيّاك نستعين"، بعد قوله "الحمد لله رب العالمين"، فإنّه إنّما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب، لأنّ الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ "الحمد" لتوسطه مع الغيبة في الخبر، فقال: "الْحَمْدُ لله" ولم يقل "الحمد لك"، ولمّا صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ"، فخاطب بالعبادة إصراحا لها وتقرّبا منه عزّ اسمه بالانتهاء إلى محدود منها ...»[1].

يتّضح من خلال كلام ابن الأثير أنّ الفائدة البلاغية لهذا الموضع هي الاختصاص وذلك أنّ الضمير المنفصل في "إيّاك" الدال على المفعول به، تقدم على فعله "نعبد"وإنّ ذلك الانتقال الحاصل في الآية من أسلوب إلى آخر، أضفى على النّص جمالا ورونقا.

أشار ابن كثير إلى أنّ الكلام في هذه الآية الكريمة تحوّل من الغيبة إلى الخطاب، وهو مناسب لأنه لمّا أثنى على الله تعالى فكأنّه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، فلهذا قال: "إيّاك

[1]– ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص175،وينظر: طالب محمد إسماعيل الزوبعي أساليب التعبير القرآني، ص96–97.

نعبد وإيّاك نستعين"، وفي هذا دليل على أنّ أوّل السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه)[1].

من شواهد هذا النمط من الالتفات كذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اِتَّخَذَ الْرَحْمَانُ وَلَدًا۞لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا۞تَكَادُ الْسَمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾. [مريم: الآيات 88-90].

فموضع الالتفات في هذه الآية هو قوله تعالى: "لقد جئتم" للخطاب بعد أن كانت للغيبة في قوله سبحانه: "وقالوا"، هذا ما يبيّنه الزمخشري في قوله: «وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله، والتعرّض لسخطه، وتنبيه على عظم ما قالوا»[2].

يتّضح من هذا القول أنّ الفائدة من هذا النمط في هذه الآية هو الجرأة على الله، والتعرّض لسخطه نتيجة الجهل بالله.

[1]-ينظر: ابن كثير ، تفسير القران العظيم، ص54.

[2]- الزمخشري، الكشاف، ج4، ص58.

كما بيّن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور هذا الموضع وفسّره تفسيرا دقيقا مبينا بأن الضمير الغائب"قالوا"عائدا على المشركين، وذلك تأييدا لعبادتهم للملائكة والجنّ، ثمّ التفت إلى الخطاب في قوله "لقد جئتم"، وذلك لغرض قصد إبلاغهم التوبيخ على وجه شديد الصراحة لا يلتبس فيه المراد، كما أنّ جملة "لقد جئتم شيئا إدّا"مستأنفة لبيان ما اقتضته جملة"وقالوا اتّخذ الرحمان ولدا" من التشنيع و التفظيع)[1].

من البلاغيين الذين فسّروا هذه الآية ابن الأثير، إذ يرى أنّ الفائدة في هذا الالتفات لا تقصر على أمر واحد بل يشمل على أمرين، الأول: زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى ...الثاني: الإنكار عليهم والتوبيخ لهم[2].

من مواطن الالتفات قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الْتِي آتَيْتَ أُجْورَهُنَ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ الله عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الْتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةُ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلْنَبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَبِيُ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمَا﴾. [الأحزاب: الآية 50].

---

[1]– ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج16، ص177.

[2]– ينظر: ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص5.

موضع الالتفات في هذا النص الكريم هو قوله سبحانه وتعالى: "خالصة لك" بصيغة الخطاب بعد أن كان بصيغة الغائب في قوله تعالى: "إن أراد النبي"، وذلك للإيذان بأنّه ممّا خصّ به وأوثر لشرف نبوته، والتفخيم له لاستحقاقه الكرامة[1].

فالفائدة من هذا الالتفات هي اختصاص شأن النبي صلى الله عليه وسلّم وتعظيمه.

إضافة إلى هذا نجد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَهَ وَأَطِيعُوا الرَسُولَ فَإِنْ تَولُوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينْ﴾. [النّور: الآية 54].

الالتفات في هذا السيّاق هو قوله تعالى: "وعليكم ما حُمّلتم" وهو بصيغة الخطاب بعد أن كان بصيغة الغيبة في قوله تعالى: "تولوا"، وذلك لفائدة أوضحها المفسّرون منهم الزمخشري، إذ يقول: «هو أبلغ في تبكيتهم، يريد: فإن تتولوا فما ضررتموه وإنّما ضررتم أنفسكم فإن الرسول ليس عليه إلّا ما حمله الله و كلفه من أداء الرسالة، فإذا أدّى فقد خرج من عهدة تكليفه، وأمّا أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقّي بالقبول والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتموه فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج عن

[1]– ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج5، ص81–82.

الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم، وما الرسول إلّا ناصح وهاد، وما عليه إلّا أن يبلغ ماله نفع في قبولكم، ولا عليه ضرر في تواليكم»[1].

يتضح من قول الزمخشري أنّ الفائدة من العدول من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب هي المبالغة في إلقاء كل ما يترتب على عصيان الله تعالى على عاتق المشركين، وأنّه لا يضره شيء، فالضّرر والنفع عائدان إليهم، وأنّ مهمة الرسول هي التبليغ.

كذلك قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَىَ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةُ لَأَحْتَنِكَنّ*ذُرِيَتَهُ إِلّا قَلِيلاَقَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءٌ مَوْفُورًا﴾. [التوبة: الآية 62-63].

في هذه الآية التفات من الغيبة في قوله تعالى: "فمن تبعك منهم" إلى الخطاب في قوله سبحانه: "إنّ جهنم جزاؤكم"، يقول الزمخشري في هذا الصدد: «فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت: بلى، ولكن التقدير:

[1]- المرجع السابق ،ج4، ص316.

*أحتنكنّ: أي لأستأصلنّهم بالإغواء، من أحتنك الجراد الأرض: إذا جرد ما عليها أكلا، وهو من الحنك، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين،أي: أكلهما.

فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات»[1]

الغرض من ذلك هو تخويفه سبحانه وتعالى آدم من إتبـــاع الشـــيطان لئلّـــا يكـــون مصـــيرهم مصيره.

[1]– المرجع السابق، ج3، ص530.

الفصل الثاني

الالتفات في الأفعال

المبحث الأول:الالتفات في فعل الماضي.

المبحث الثاني: الالتفات في فعل المضارع.

المبحث الثالث: الالتفات في فعل الأمر.

المبحث الأول: الالتفات من الماضي:

أ-إلى المضارع:

كثيرا ما نجد تراكيب في اللغة العربية تعبر عن أحداث ماضية بصيغة المضارع، وذلك بهدف استحضار صورة الحدث أمام عين المخاطب، فصيغة الفعل المضارع تكون على وزن "يفعل"، ارتبطت دلالتها بالتعبير عن الحال والاستمرار، لذلك فهي الأوسع من كل الصيغ الأخرى.

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تحوّل فيها السياق من الماضي إلى المضارع، ما يشكل ظاهرة بلاغية فريدة من نوعها، وهي "الالتفات"، وهذا التحوّل يكون استجابة لمقتضى المقام، نأخذ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يُسَومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِكُمْ عَظِيمٌ﴾. [البقرة: الآية 49].

موضع الالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله عزّ وجلّ "يسومونكم ... يذبحون...يستحيون" جاءت هذه الأفعال بصيغة المضارع، وكانت من المتوقع أن تتوافق مع فعل الماضي الذي كان قبلها في قوله تعالى "نجّيناكم" أشار أبو حيان إلى هده الصورة قائلا: «قوله تعالى: "يسومونكم" يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة وهي حكاية حال ماضية،

ويحتمل أن تكون في موضع الحال: (نساءكم)، وهي حال من آل فرعون، "وسوء العذاب" أشقه وأصعبه»[1].

الغرض من هذا الالتفات هو استحضار مشهد تعذيب آل فرعون لأبنائهم ونساءهم، والمضارع دليل على الكثرة والمبالغة في القتل.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ الله قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَا تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ الله مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنُونَ﴾. [البقرة: الآية 91].

موضع الالتفات في هذا المقام هو قوله تعالى "فلم تقتلون"، جاء بلفظ المضارع، وكان السياق يقتضي أن يقال "فلما قتلتم" بلفظ الماضي تماشيا مع قوله عزّ وجلّ: "من قبل"، بيّن المفسرون غرض هذا التحوّل من بينهم أبو حيّان يقول: «وجاء (يقتلون) بصورة المضارع والمراد الماضي، إذ المعنى قل (فلم قتلتم)، وأوضح ذلك بأن هؤلاء الذين بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يصدر منهم قتل الأنبياء، وأنه قيد بقوله (من قبل)، فدل على تقدم القتل، وقال ابن عطية (وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمرا

[1]– أبو حيان، البحر المحيط، ج1، ص351.

ألا ترى أن حاضري محمد صلى الله عليه وسلم لمّا كانوا راضينا بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء)»[1].

الفائدة من هذا القول هي تقدم القتل والاستمرار فيه، وأنه من فعل السابقين، ولما رضي عنه الحاضرون، وكانوا لهم جزء في ذلك.

إضافة إلى النسفي يقول: «قال الله تعالى: "قل فلم تقتلون أنبياء الله" أي فلم قتلتم، فوضع المستقبل موضع الماضي، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى "من قبل إن كنتم مؤمنين"أي من قبل محمد عليه الصلاة والسلام اعتراض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادّعائهم الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغ قتل الأنبياء، قيل: قتلوا في يوم واحد ثلاثمائة نبي في بيت المقدس»[2].

الفائدة هنا هي ادّعاء هؤلاء القوم الإيمان، وهم في الوراء يكفرون.

أمّا الصابوني يرى أن الفائدة من هذا التعبير هو استحضار صورة قتل الأنبياء أمام السامع كأنه ينظر إليها بعينه يقول: (التعبير بالمضارع "وفريقا تقتلون"ولم يقل "قتلتم" كما قال "كذبتم" لأن الفعل المضارع-كما هو المألوف في أساليب البلاغة- يستعمل في الأفعال الماضية التي

[1]- المرجع السابق، ص475.

[2]- النسفي، تفسير القرآن الكريم، ص67.

بلغت من الفظاعة مبلغا عظيما فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع وجعله ينظر إليها بعينه فيكون إنكاره لها أبلغ واستفظاعه لها أعظم)[1].

وهذا الرأي الأخير هو الأرجح –والله أعلم– فالمجيء بالفعل المضارع في هذا السياق الكريم إنما لاستحضار مشهد ذلك القتل حتى لا ينكر الكافرون كفرهم كأن الله تعالى يذكرهم بفعلتهم وأنه سبحانه ليس غافلا عما اقترفوه.

قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوِى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾. [المائدة: الآية 70].

موضع الالتفات في هذا المقام هو قوله تعالى "يقتلون" بصيغة المضارع، وكان الكلام يقتضي أن يقال "قتلوا"، ليتناسب مع قوله عزّ وجلّ "كذبوا" ذهب المفسرون إلى شرح هذه الآية، وبيان فائدة الالتفات فيها، من بينهم الزمخشري يقول: «فإن قلت جيء بأحد الفعلين ماضيا، وبالآخر مضارعا؟ قلت: جيء: "يقتلون" على حكاية الحال الماضية استفظاعا للقتل واستحضارا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها»[2].

الغرض عند الزمخشري هو استحضار صورة القتل، وحالها الشنيعة وذلك للتعجب منها.

[1] –محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، 1402ه– 1981م، ط4،ج1، ص78.

[2] – الزمخشري، الكشاف، ج2، ص274–275.

طرح الرازي السؤال نفسه، إذ قال: «لم ذكر أحد الفعلين ماضيا، والآخر مضارعا؟ والجواب: أنه تعالى بيّن كيف أنهم كانوا يكذبون عيسى وموسى في كل مقام، وكيف كانوا يتمردون على أوامره وتكاليفه، وأنه عليه السلام إنّما توفي في التيه على قول بعضهم لشؤم تمردهم عن قبول قوله في مقاتلة الجبارين »[1].

بيّن الرازي في هذا الجزء من كلامه تكذيب بني إسرائيل بعيسى وموسى، وتمردهم على أوامرهما، ثم تابع كلامه في شرح فعل "القتل"، إذ يقول: «وأما القتل فهو ما اتفق لهم في حق زكريا ويحيى عليهما السلام، وكانوا قد قصدوا أيضا قتل عيسى عليه السلام وإن كان الله منعهم عن مرادهم وهم يزعمون أنّهم قتلوه، فذكر التكذيب بلفظ الماضي هنا إشارة إلى معاملتهم لموسى عليه السلام، لأنه قد انقضى من ذلك الزمان أدوار كثيرة، وذكر القتل بلفظ المضارع إشارة إلى معاملتهم لزكريا ويحي وعيسى عليهم السلام لكون ذلك الزمان قريبا فكان كالحاضر»[2].

ومن خلال هذا فإن ورود فعل التكذيب بصيغة الماضي دلالة على معاملة القوم مع موسى عليه السلام، أمّا فعل "القتل" فجاء بصيغة المضارع ليشير إلى معاملتهم مع زكريا ويحي وعيسى عليهم السلام، لكون الزمان قريبا.

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج12، ص59.

[2]– المرجع نفسه، ج12، ص59.

توالت نصوص المفسرين عن هذا الموضع، إذ يقول الشعراوي « وتتجلى دقة القرآن حين يأتي الحق بصيغة الماضي لفئة وصيغة المضارع لفئة أخرى (فريقا كذبوا وفريقا يقتلون)، لأن التكذيب هو تأب من المكذب، أمّا القتل فهو تأب على وجود الرسول من الذين يكذبون، والأبشع هو القتل لأنه إزالة لكل أثر من آثار وجود المقتول. وجاء التكذيب في صيغة الماضي، وجاء في المسألة البشعة بصيغة المضارع»[1].

فهنا تحذير من الله تعالى لكي تنسخ صورة القتل للرسل في الأذهان واستحضار بشاعة هذا الفعل. إضافة إلى:(القرطبي، أبي حيان، أبي السعود)[2] فقد عالجوا كلهم هذا الموضع وكانوا يتحدّثون عن الغرض نفسه، وهو استحضار صورة القتل و فضاعتها ومراعاة رأس الآية.

من مواطن هذا الالتفات كذلك، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةٌ إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. [الحج: الآية 63].

موضع الالتفات في هذا السياق القرآني، هو في قوله سبحانه "فتصبح" بلفظ المضارع، وكان من المتوقع أن يقال "فأصبحت"ليتناسب مع اللّفظ الماضي الذي كان قبله في قوله عزّ وجل "أنزل"، وهذا التحوّل حمل أغراضا بلاغية مختلفة أشار إليها المفسرون من بينهم

[1]– تفسير الشعراوي، المجلد5، ص3305

[2]– لمزيد من التوضيح ينظر: كل من القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص247، وأبو حيان، البحر المحيط، ج4، ص300، وأبو سعود، إرشاد العقل السليم، ج3، ص63.

الزمخشري، إذ يقول: «فإن قلت: هلا قيل فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟ قلت: لنكتة فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكرا له، ولو قلت: فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع»[1].

هذا العدول عند الزمخشري أفاد بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان.

والشيء نفسه عند أبي السعود،إذ يقول: «وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد أثر الإنزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار»[2].

كذلك البيضاوي يقول: «وإنما عدل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان »[3].

يقول عزّ وجلّ: ﴿وَاللهُ الَذِي أَرْسَلَ الْرِيَاحَ فَتُثِيرَ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيتَ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْنُشُورْ﴾. [فاطر: الآية 9].

موضع الالتفات في هذا السياق الكريم هو قوله عزّ وجلّ "فيثير" جاء بصيغة المضارع، وكان من المتوقع أن يقال "فأثارت" كي يتناسب مع فعل الماضي الذي قبله وبعده في قوله عزّ

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص209.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص117.

[3]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص456،457.

وجلّ "أرسل ... فسقناه"، وذلك لنكت بلاغية وضّحها المفسرون والبلاغيون أمثال الزمخشري، إذ يقول: «فأذن قلت: لم جاء "فتثير" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك ...»[1].

تبيّن أن الفائدة حسب الزمخشري هي استحضار الصورة البديعة الدالة على القدرة الإلهية.

كما تطرق الرازي لهذا الموضع إذ يقول: «قال تعالى: "والله الذي أرسل" بلفظ الماضي، وقال "فتثير سحابا" بصيغة المستقبل، وذلك لأنه لمّا أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زمانا ولا جزءا من الزمان، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء، فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة، والتقدير كالإرسال، ولما أسند فعل الإثارة إلى الرياح وهو يؤلف في زمان فقال "تثير" أي على هيئتها»[2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص142.

[2]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص7.

يبدو من خلال قول الرازي أنّ ورود فعل الإرسال بصيغة الماضي للدلالة على إمكانية وقوعه بسرعة، وأنه مقدّر أصلا في حين إن إثارة الرياح للسحاب تكون في مدة زمنية طويلة ومستمرة، لذا وردت بصيغة المضارع.

إضافة إلى هذا فإن أبا حيان أخذ الموقف نفسه من هذا الموضع إذ يقول «قيل: "أرسل" في معنى يرسل ولذلك عطف عليه "فتثير" وقيل: جيء بالمضارع حكاية حال يقع فيها الرياح السحاب ويستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية»[1]، ثم واصل كلامه مستشهدا بكلام الزمخشري الذي ذكرناه في البداية. ولم يزد أبو السعود والبيضاوي على ما ذكره المفسرون.

كما تناول حسن طبل هذا النوع من الالتفات مستشهدا ببعض الآيات التي تضمنته، من بينها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكِ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ الْسَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَ الله بِالْنَاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. [الحج: الآية 65].

[1] – أبو حيان، البحر المحيط،، ج7، ص288.

وقوله أيضا سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ الْسَّمَاءِ مَاءً فَمِسْكُهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَ يَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾. [الزمر: الآية 21].

فكلتا الآيتين فيهما عدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع "سخّر ... يمسك" "أنزل ... يخرج"، ما بيّن الفرق بينهما في أداء المعنى والدلالة على الحدث فالأولى تدل على انقطاع الحدث وانتهائه، أمّا الثانية فتدل على استمرار الحدث وتجدّده بهذا تكون هذه الأخيرة منفردة عن غيرها من الصيغ، فهي قادرة على إثارة المعنى واستحضار صورته أمام عين السامع[1].

يواصل كلامه بقوله: «... وعلى هذا الأساس ذاته كان التحوّل عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع في الآيتين عند التعبير عن الأحداث التي هي في ذاتها (أي بصورتها وكيفية حدوثها) مواطن العبرة ومناط التأمّل... التي أوثرت صيغة المضارع في التعبير عنها هي في ذاتها مثار تأمل الإنسان المؤمن ... أدلة قاطعة على قدرة الخالق عزّ وجلّ»[2].

كما توصّل الزوبعي إلى استخراج الأغراض البلاغية التي تحققها هذه الصورة، وذلك من خلال قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى ...﴾. [يوسف: الآية 43]. إذ يقول: «... فإن

[1] – حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص79.

[2]– المرجع نفسه ،ص80.

مقتضى الظاهر أن يكون القول "إني رأيت" فعدل السياق عن صيغة "فعل" إلى صيغة "يفعل" أرى لحكاية الحال الماضية»[1].

ثم أخذ آية أخرى من السورة نفسها، أفاد فيها العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع الاستمرار والمراودة، وتجدّدها ودوامها، وذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ مِنْ الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾[2]. [يوسف: الآية 30].

إضافة إلى هذا فإن الزركشي قد عالج هذا النوع من الالتفات، استشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾. [الحج: الآية 25]، فموضع الالتفات في هذا السياق الكريم هو قوله تعالى "يصدون" إذ جاء بصيغة المضارع، وكان مقتضى الظاهر أن يكون القول "صدّوا" وذلك تماشيا مع الفعل الماضي "كفروا"، يبيّن الغرض البلاغي وراء هذا العدول فيقول:«والحكمة في هذه أن الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبّر عنه بالماضي ليفيد ذلك مع كونه نافيا أنّه قد مضى عليه زمان ولا كذلك الصّد عن سبيل الله، فإن حكمه إنّما ثبت حال حصوله مع أنّ في الفعل المستقبل إشعارا بالتكثير فيشعر قوله "ويصدون" أنّه في كل وقت بصدد ذلك ولو قال "وصدّوا" لأشعر بانقطاع صدهم»[3].

---

[1]– طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ص151.

[2]– المرجع نفسه، ص151

[3] – الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص834.

نستنتج أن الغرض من قول الزركشي هو الإشعار بالتكثير وأنّه في كل وقت. من خلال كل هذا نستنتج أنّ صيغة الفعل المضارع "يفعل" هي الأوسع و الأشمل من كل الصيغ الأخرى، تتضمن معاني كثيرة تختلف باختلاف السياق أشهرها: استحضار الصور،الاستمرار، التجدّد، حكاية الحال الماضية، وقد اتفق المفسرون والبلاغيون على هذا.

ب:إلى الأمر:

يعد الانتقال من الفعل الماضي إلى الأمر طريقة غير مألوفة في كلام العرب لم يرد كثيرا لكونهم يلجأون إلى أبسط الأساليب وأبلغها وأفصحها، وذلك حتى يكون كلامهم مفهوما وواضحا لدى السّامع، ففعل الأمر يأتي بصيغة "افعل" نحو "اقرأ"، وذلك للمخاطب، أمّا غير المخاطب فيأتي مقرونا باللّام ولا يتقيّد بمعنى واحد، بل يخرج إلى معان مجازية أهمّها:الدّعاء، التهديد، النصح، الإرشاد، الإهانة، الاحتقار... إلخ.

أمّا فيما يخص زمنه فهو المستقبل دائما لأنه عبارة عن طلب فعل شيء لم يحصل بعد، وأوّل مثال يصادفنا في القرآن الكريم هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ إِنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَعِ السُّجُودِ﴾. [البقرة: الآية 125].

الالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى "واتخذوا" بلفظ الأمر بعد أن كان السياق قبله بصيغة الماضي في قوله عزّ وجلّ "جعلنا"، ولقد اختلف المفسرون في وجود الالتفات، فبعضهم ذهب إلى أنّه معطوف على الفعل الذي قبله، وبعضهم ذهب إلى أن هناك قولا محذوفا، وما زاد الأمر تعقيدا هو ورود قراءات بفتح الحاء في "اتخذوا"، فيكون بذلك ماضيا، أو كسرها فيكون أمرا. وبهذا يحمل الأول معنى الإخبار والثاني معنى الطلب.

يقول الزمخشري: «قرئ: "اتخذوا"بلفظ الماضي عطف على "جعلنا"، أي واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها»[1].

وهذا ما ذهب إليه الرازي أيضا، إذ يقول: «قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم الكسائي (واتخذوا) بكسر الخاء على صيغة الأمر، وقرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على صيغة الخبر. أمّا القراءة الأولى فقوله (اتخذوا)عطف على ماذا؟ فيه أقوال... أن هذا أمر من الله تعالى لأمة محمد عليه الصلاة والسلام، أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وهو كلام اعتراض في خلال ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وكأن وجهه (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا) أنتم من مقام إبراهيم مصلى، والتقدير أن لما شرفناه ووصفناه بكونه مثابة للناس وأمنا فاتخذوه أنتم قبلة لأنفسكم ...) ثم واصل كلامه فيما يخص القراءة الثانية قائلا: «أمّا من قرأ "واتخذوا" بالفتح فهو إخبار عن ولد إبراهيم أنهم اتخذوا من مقامه مصلى،

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج1، ص319–320.

فيكون عطفا على "وجعلنا البيت" واتخذوه مصلى، ويجوز أن يكون عطفا على "وإذ جعلنا البيت" وإذ اتخذوه مصلى»[1].

كذلك الأمر بالنسبة للقرطبي، يقول: «قوله تعالى: "واتخذوا" قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمّن اتخذه من متبعي إبراهيم، وهو معطوف على "جعلنا" أي: جعلنا البيت مثابة واتخذوه مصلى، وقيل: هو معطوف على تقدير "إذ" كأنه قال: وإذ جعلنا البيت مثابة وإذا اتخذوا، فعلى الأولى الكلام جملة واحدة، وعلى الثاني جملتان، وقرأ جمهور القراء: "واتخذوا" بكسر الخاء، على جهة الأمر قطعوه من الأول، وجعلوه معطوفا جملة على جملة»[2].

وممن ذهبوا أنّ هناك كلاما محذوفا البيضاوي إذ يقول: "واتخذوا" على إرادة القول أوعطف على المقدرة عاملا لإذ، أو اعتراض معطوف على مضمر تقديره "توبوا إليه واتخذوا" على أن الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أمر استحباب»[3].

---

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج4، ص52–53

[2]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص373.

[3]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص135.

يتضح من كل هذا أن هناك إجماعا بين المفسرين على شرح هذه الآية، وجمهور الناس قرؤوا "اتخذوا" بكسر الخاء مما يجعلها بصيغة الأمر الدالة على الأمر الموجه لأمة الرسول عليه الصلاة والسلام.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مخْلِصِينَ لَهُ الْدِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾. [الأعراف: الآية 29].

في هذه الآية الكريمة الالتفات هو قوله تعالى "وأقيموا" جاء في قالب الأمر وكان من المتوقع أن يقال "بإقامة" حتى يتطابق مع الفعل الماضي الذي قبله "أمر". أشار إليه البلاغيون وحدّدوا الغرض منه، نذكر على سبيل المثال ابن الأثير يقول: «يرجع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر... توكيدا لما أجري عليه فعل الفعل لمكان العناية بتحقيقه، كقوله تعالى: "قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين"، وكان تقدير الكلام: أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده»[1].

فالعدول من الفعل الماضي إلى الأمر في هذه الآية أفاد التوكيد لما أجري عليه الفعل لمكان العناية بتحقيقه.

[1]– ابن الاثير، المثل السائر، ج2، ص12.

كذلك الأمر بالنسبة للزوبعي، إذ يقول: «فإن مقتضى الظاهر أن يكون القول "أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم ..." لكن السياق الكريم عدل إلى صيغة (أفعل) لأن المعنى المعبر عنه الذي هو (إقامة الصلاة) معنى مهم. وقد حققت المخالفة في الصيغة ما يأتي:

أ- دلالة عامة هي أن الحديث بلغ حدّا من المعنى يجب على السامع أن يلتفت إليه.

ب- دلالة خاصة تحققت بتوجيه الأمر إليهم حصر بإقامة الصلاة وهي لبيان مزيد من العناية بالصلاة)[1]

حصر صاحب القول الآية في فائدتين :تحقيق المعنى ما يجعل السامع يلتفت، وثانيها تمثلت في الأمر بإقامة الصلاة.

في حين لم يذكر المفسرون هذا إذ اكتفوا بالإشارة إلى قضية نحوية تضمنها السياق الكريم، وهي مسألة العطف، أمثال الرازي وأبو حيان.

[1]- الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ص154.

المبحث الثاني: الالتفات من المضارع:

أ:إلى الماضي:

هو ظاهرة بلاغية تتميز بالحيوية والدقة في الأسلوب لكونها تعبر عن معنى مستقبلي بفعل ماض، ورد هذا القسم في القرآن الكريم بكثرة إذ أن أغلب الأمثلة جاءت في تصوير مشاهد يوم القيامة للدلالة على صدقها وإثباتها، وبعضها الآخر جاء للدلالة على ما سيحدث كمجيء يوم الآخرة وحال المشركين وغيرها من الأمور التي يجب أن نؤمن بوقوعها يوما ما، و هذا كله يتحقق بفعل صيغة الماضي التي تدل على تحقيق أمر معين وإتمامه وحصوله بصفة قطعية،وإنزال حوادث المستقبل منزلة حوادث الماضي إشارة إلى أنّ حدثها واقع لا محالة، من أمثلة ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله ولِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمْ﴾. [العنكبوت: الآية 23].

الالتفات الذي يظهر في هذه الآية هو قوله تعالى "يئسوا" بلفظ الماضي، والمقام يفترض أن يقال "ييأسوا" بلفظ المضارع لكونه سبحانه وتعالى يشير إلى يأسهم يوم القيامة، تطرّق المفسرون لشرح هذا الموضع، منهم البيضاوي، إذ يقول: «يقول الله عزّ وجلّ: "أولئك يئسوا

من رحمتي" أي ييأسوا منها يوم القيامة، فعبّر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة، أو أيسوا في الدنيا لإنكار البعث والجزاء»[1].

الفائدة إذا حصلت في أمرين إمّا للتحقق والمبالغة، أو لحصول اليأس في الدنيا، وذلك بسبب إنكار البعث والجزاء.الأمر نفسه بالنسبة لأبي سعود[2].

أمّا الزمخشري فقدّم لنا فائدة أخرى تتمثل في الوعيد ووصف حال الكفار وتشبيهها، إذ يقول: «وعيد، أي ييأسون يوم القيامة، أو هو وصف لحالهم، لأن المؤمن إنّما يكون راجيا خاشيا، فأما الكافر فلا يخطر بباله رجاء ولا خوف. أو شبّه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يئس من الرحمة، وعن قتادة –رضي الله عنه–: أنّ الله ذمّ قوما هانوا عليه فقال "أولئك يئسوا من رحمتي"»[3].

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [النحل: الآية 1].

فموضع الالتفات في هذا النص القرآني هو قوله تعالى "أتى" وهو بمعنى "يأتي"، وهذا ما أشار إليه المفسرون منهم الزمخشري حيث يقول: «كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام

[1]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج20، ص34.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص36.

[3]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص544،545

الساعة، أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكذيبا بالوعد، فقيل لهم "أتى أمر الله" الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظرا لقرب وقوعه»[1].

فالفائدة من هذا القول هي تكذيب القوم بوعد الله والاستهزاء به، لذا جاء الفعل بمنزلة الماضي للدلالة على الشيء الذي سيقع.

وهذا ما ذهب إليه البيضاوي أيضا، إذ يقول: «كانوا يستعجلون ما وعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم من قيام الساعة، أو إهلاك الله تعالى إيّاهم كما فعل يوم بدر استهزاء وتكذيبا، ويقولون إن صح ما تقولون فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت. والمعنى أن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه»[2].

أمّا الرازي فقد ذكر وجهين بديعين في الآية الكريمة، إذ قال: «الوجه الأول: إنّه وإن لم يأت ذلك العذاب إلّا أنّه كان واجب الوقوع والشيء إذا كان بهذه الحالة والصفة فإنّه يقال في الكلام المعتاد إنّه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك مجرى الواقع يقال لمن طلب الإغاثة وقرب حصولها:لقد جاءك الغوث فلا تجزع. أي إن الفعل واقع لا محالة. والوجه الثاني: هو أن يقال: إن أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع، فأما المحكوم به فإنما

[1]– المرجع السابق، ج3، ص422.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج14، ص251.

له يقع لأنه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجـــود. والحاصل كأنه قيل: أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد مـــن الأزل إلـــى الأبـــد، فصح قولنا: أتى أمر الله، إلّا أنّ المحكوم به المأمور به إنّما لم يحصل لأنه تعـــالى خصّـــص حصوله في وقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت»[1].

أي إن الله خصّص لكل شيء وقته، ووراء ذلك حكمة إلهية.

إضافة إلى هذا يقول ابن عاشور: «صدرت الصورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حلّ ذلك المتوعد به، فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحقق الوقوع بقرينة تفريـــع "فلا تستعجلوه" لأن النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنّه لم يحـــل بعـــد، والأمـــر مصدر بمعنى المفعول، كالوعد بمعنى الموعود، أي ما أمر الله به. والمراد مـــن الأمـــر بـــه تقديره و إرادة حصوله في الأجل المسمّى الذي تقتضيه الحكمة»[2].

والملاحظ أنّ النصوص التفسيرية جميعها تتفق على أن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضـــي إنّما هو للدلالة على أن هذا الأمر واقع لا محالة بما لا يدعو إلى الشك فيه، كما أنـــه مـــرتبط بحكم الله عزّ وجلّ.

---

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج19، ص169.

[2]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 14، ص96.

ومن مواطن الالتفات كذلك قوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۞ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۞ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.[الكهف: الآيات 47 – 48 – 49].

فموضع الالتفات في هذا السياق الكريم هو قوله تعالى "وحشرناهم ... عُرضوا ... وُضع ... وجدوا" بصيغة الماضي، وكان المقتضى أن يقال " ونحشرهم ... ونعرضهم ... ونضع ... ويسجدون"، أي بصيغة المضارع حتى تتوافق هذه الأفعال مع ما قبلها من خلال قوله عزّ وجلّ " نسيّر ... ترى".

وقد ذهب المفسرون إلى شرح سبب هذا العدول، من بينهم الزمخشري إذ يقول: «فإن قلت: لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسيّر وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك »[1].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص591.

والملاحظ أن كلام الزمخشري خال من الإشارة إلى تحقق وقوع الفعل، بل نظر إلى تلك الأحداث من حيث تسلسلها الزمني، ربما لم ير ما رآه غيره أو لم يرد إعادة الكلام لكون هذا العدول من الأمور الشائعة في القرآن الكريم، والله أعلم.

وقد تابع ابن الأثير كلام الزمخشري، فقال: «وإنّما قيل: وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى وهما مستقبلان، للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم، لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي»[1].

أي لتبيان أن يوم الحشر من الأمور المهمة التي يجب الإيمان بها والتصديق بوقوعها يوما ما.

وممن ذهب إلى دلالة هذا العدول هي التحقق من وقوعه أبو حيان، إذ يقول: «وقيل: وحشرناهم، وعرضوا، ووضع الكتاب، مما وضع فيه الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوعه»[2].

[1]– ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص16.

[2]– أبو حيّان، البحر المحيط، ج6، ص127.

كذلك ابن عاشور فيقول: «ويجوز أن نجعل جملة "وحشرناهم" معطوفة على جملة "ونسير الجبال" على تأويله ب "نحشرهم" بأن أطلق الفعل الماضي على المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه»[1].

أمّا البيضاوي فقد جمع بين الدلالتين السابقتين، دلالة الزمخشري ودلالة أبي حيان، إذ يقول: «قال عزّ وجلّ: "وحشرناهم" وجمعناهم إلى الموقف، ومجيئه ماضيا بعد "نسيّر، وترى" لتحقق الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وُعد لهم، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد»[2].

إضافة إلى هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي الْسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله وكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾. [النمل: الآية 87].

فقد أتى السياق الكريم في بداية الآية بصيغة المضارع في قوله تعالى "ينفخ" ثم عدل إلى صيغة الماضي في قوله " ففزع ... أتوه"، للإشارة إلى تحقيق وقوع الفزع.

عالج الزمخشري الآية فقال: «فإن قلت: لم قيل: "ففزع" دون فيفزع؟ قلت: لنكتة هي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السماوات والأرض لأن

---

[1]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج15، ص335.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج15، ص342.

الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون»[1]. فالفائدة هنا هي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنّه واقع لا محالة.

وقد حذا أبو السعود حذو الزمخشري، إذ يقول: «... وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه أعنى (ينفخ) مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه إثر النفخ»[2].

إضافة إلى هذا يقول الزركشي «قالوا: والفائدة في الفعل الماضي إذا أخبر عن المستقبل الذي لم يوجد أنّه أبلغ وأعظم موقعا لتنزيله منزلة الواقع، والفائدة في المستقبل إذا أخبر به عن الماضي لتتبيّن هيئة الفعل باستحضار صورته، ليكون السامع كأنه شاهد، وإنما عبر في الأمر بالتوبيخ بالماضي بعد قوله: "يُنفخ" للإشعار بتحقيق الوقوع وثبوته»[3].

الزركشي هنا بيّن دلالة صورتين من صور الالتفات، فالأولى تتمثّل في العدول من الفعل المضارع إلى الماضي وذلك بتنزيله منزلة الواقع، أمّا العكس أي من الماضي إلى المضارع فتشير إلى استحضار الصورة أمام عين السامع.

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الْصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي الْسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله ثُمَ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامَ يَنْظُرُونَ۞ وَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوَضَعَ

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص476.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص303.

[3]– الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص834.

الْكِتَابَ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالْشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ۞ وَوُفِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ۞وَسِيقَ الَذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَمَ زُمْرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ وُسُلٌ مِنْكُمْ...﴾. [الزمر: الآيات68 – 71].

كما نرى أن السياق الذي جرت عليه الآيات الكريمات كله يعبّر عن أحداث ماضية، وذلك من خلال قرينة الأفعال الواردة فيها كقوله تعالى: " نفخ ... صعق ... أشرقت ... وُضع ... جيء ... قُضي ... وُفيت ... سيق " ،لكن المراد منها هو التعبير عن الأحداث التي ستأتي يوم قيام الساعة حتى دخول كل زمرة إلى موقعها الذي كتبه الله تعالى لها، وجيء بهذه الألفاظ بتلك الصيغة للدلالة على تحقق وقوعها، وأن حصولها أمر مقطوع به .

الى مثل هذا أشار كل من السيوطي و الزركشي[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الْضُعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبِرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾. [إبراهيم: الآية 21].

موطن الالتفات في هذا السياق الكريم هو قوله سبحانه "برزوا" بصيغة الماضي، وكان المقتضى أن يُقال "يبرزون" بصيغة المضارع لأن الله تعالى في صدد الحديث عن يوم

[1]– ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص430، والزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص372.

القيامة، وهذا العدول إشارة إلى صدقه ودلالة على أنّه كان ووجد مثل ما ذهب إليه الزمخشري في قوله: «قوله تعالى: "وبرزوا لله" ويبرزون يوم القيامة، وإنّما جيء به بلفظ الماضي، لأن ما أخبر به عزّ وجلّ لصدقه كأنه قد كان ووجد»[1].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿و كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾. [الطلاق: الآية 8].

موضع الالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى "فحاسبناها ... عذبناها"، إذ أنزل منزلة الماضي للدلالة على ما هو مستقبل والتحقق والواقع، يقول أبو السعود في هذا الشأن: «يقول عزّ وجلّ: "فحاسبناها حسابا شديدا" باستقصاء والتنقير والمناقشة في كل نقير وقطمير، وقوله: "عذبناها عذابا نكرا" أي منكرا عظيما، وقرئ نكرا والمراد حساب الآخرة وعذابها، والتعبير عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحقّقها»[2].

ومن ذلك ما يتمثّل في قوله سبحانه: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسِطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالْسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.[الممتحنة: الآية 2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص372.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص263.

ففي الآية الكريمة عدول عن صيغة المضارع جوابا للشرط "يكونوا ويبسطوا" إلى صيغة الماضي المعطوفة عليها: "وودّوا"، يقول الزمخشري في بيانه لنكتة هذا الالتفات: «فإن قلت: كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال "وودّوا" بلفظ الماضي؟ قلت: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة كأنه قيل: وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا: من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض، وردّكم كفارا أسبق المضار عندهم وأوّلها، لعلمهم أن الدين أعزّ عليكم من أرواحهم، لأنّكم بذّالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه»[1].

الغاية من هذا القول هي رغبة الكفار في إلحاق الأذى والضرر بالمسلمين، فجاء ذلك الفعل على صيغة الماضي لكونه أسبق المضار عندهم وأوّلها.

وإلى مثل هذا أشار أبو السعود إذ يقول: «يقول عزّ وجلّ: "وودوا لو تكفرون" أي تمنوا ارتدادكم وصيغة الماضي للإيذان بتحقق و دادتهم قبل أن يثقفوهم أيضا»[2].

فالفعل الثاني "ودّوا" أسبق من الفعل الأول "يثقفوكم".

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج6، ص90.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص236.

أمّا السكاكي فقد ركز على طبيعة الحدث لكون الصيغة الأولى مؤكدة ومحققة الوقوع بخلاف الثانية، يقول: «... ترك "ودّوا" إلى لفظ الماضي إذ لم تكن تحتمل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم أن يثقفوهم أعداء لهم وباسطي الأيدي والألسنة إليهم للقتل والشتم»[1].

أشار حسن طبل إلى أن التعبير عن معنى الودادة بصيغة الماضي في هذه الآية جاء مخالفا في الآية التي سبقت من خلال التعبير عنه بصيغة المضارع وذلك في قوله تعالى:﴿... تَلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَةِ... تَسِرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَةِ ...﴾. [الممتحنة: الآية 1] .

فدلالة الآيتين هي نهي المؤمنين عن موالاة الكفار و ودادتهم، ومعرفة ما يكنه هؤلاء الكفار من عداوة وحسد، فسبقت ودادة المؤمنين للكفار في الآية الأولى على صيغة مصدر "مودة"متعلقة بفعل مضارع مرتين"تلقون ... تسرون" للدلالة على أن تلك المودة لن يكون لها صدى ووقع في قلوبهم، أمّا التعبير عما يودّه الكفار للمؤمنين بصيغة الماضي، فإشارة إلى ما يخفيه هؤلاء الكفار من بغض وحسد وحقد[2].

[1] – أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، د.ط، د.س، ص104.

[2]– ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص81.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِ أُمَةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِ شَيْءٍ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. [النحل: الآية 89].

ففي الآية الكريمة التفاتين، الأول يتمثل في الحديث عن بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإشهادهم على الناس أجمعين يوم القيامة بصيغة الغائب، ثم تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر عن طريق المخاطبة، أمّا الثاني هو العدول عن صيغة المضارع في قوله عزّ وجلّ "نبعث" إلى لفظ الماضي في قوله سبحانه "جئنا ... نزّلنا" فالغاية من الأول هي الإشعار بأفضلية الرسول عليه الصلاة والسلام على سائر المرسلين كذلك شهادته، أمّا الغرض من الثاني فهو تبيان أن شهادته هي الأولى من شهادة الرسل السابقين[1].

أضف إلى هذا قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمْ النَارُ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾. [هود: الآية 98].

حيث عدل السياق الكريم عن صياغة المضارع "يقدم" إلى صيغة الماضي "أوردهم" للدلالة على أمر موجود مقطوع به لما في ذلك من الإرهاب والتخويف[2].

[1]- ينظر: المرجع السابق، ص82.

[2]- ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص233، والزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ص152-153.

ب-إلى الأمر:

هو قسم آخر من أقسام الالتفات في الأفعال، يقوم على الانتقال من لفظ المضارع الدال على الحال أو الاستقبال إلى لفظ الأمر الدال على أكثر من غرض أو فائدة، فقد يكون تارة للتهكم أو التهاون أو غير ذلك. كما قد تأتي الصيغة "صيغة أمر"، وفي معناها تحمل دلالة الخبر التي تشير إلى التأكيد والمبالغة، وقد يكون الفعل "فعل أمر" والفاعل هو المتكلم نفسه، وبذلك يكون الغرض منه المبالغة في الالتزام بما طُلب منه، وقد يأتي كذلك الأمر على معنى التعجّب بمن يمارس فعلا ما، وهكذا تتوالى الصور وتتعدد الغايات في مثل هذه المواضع التي أرساها الله تعالى في كتابه الحكيم، وأرشد العلماء والمفسرون إلى معرفة مواطنها والنكت البلاغية التي ترمي إليها، فتكلموا عنها وشرحوها بالتفصيل مستخرجين بذلك أسمى الفوائد وأجملها، ليظهروا للناس أنّ هذا الكلام ليس بكلام عادي يقدر عليه أي شخص بل هو كلام منزّه من رب العالمين.

و من بين هذه المواضع نذكر قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّيَ أُشْهِدُ الله وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. [هود: الآية 54].

فموضع الالتفات في هذا السياق الكريم هو قوله تعالى "واشهدوا" بصيغة الأمر، وكان من المتوقع أن يقال "وأُشهدكم" حتى يتناسب مع الفعل المضارع الذي قبله وهو "أُشهد" بيّن

المفسرون دلالة هذا العدول من بينهم الزمخشري، إذ يقول: «فإن قلت: هلا قيل: إنّي أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلّا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه، أشهد على أني لأحبك تهكما به واستهانة بحاله»[1].

فمجيء فعل الأمر في هذه الآية الكريمة هو دليل على قلة المبالاة بهم.

وهذا ما ذهب إليه النسفي[2] والبيضاوي[3].

أما القرطبي فأشار إلى أنّ التحول من صيغة المضارع إلى صيغة الأمر أفاد تقرير القوم ببراءة هود عليه السلام من عبادة الأصنام التي يعبدونها، إذ قال: «أي: وأشهدكم لا أنّهم أهل شهادة، لكنه نهاية للتقرير، أي لتعرفوا أني بريء مما تشركون أي من عبادة الأصنام التي تعبدونها)[4].

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص209، وينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص 53–54.

[2]– ينظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ص491.

[3]– ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج12، ص136.

[4]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص52.

فالآية إذا تضمنت شهادتين شهادة الله تعالى التي أتت على صيغة المضارع الدّالة على الصحة، وشهادة قوم هود التي جاءت على لفظ الأمر التي أنزلتهم منزلة المأمور الدالة على أنّها لا فائدة منها ولا تأثير لها إلّا التهاون و الاستهزاء[1].

قوله أيضا تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. [العنكبوت: الآية 12].

فموضع الالتفات في هذا النسق العظيم هو قوله تعالى "ولنحمل" بصيغة الأمر لفظا، لكن في المعنى أفاد الخبر وذلك بهدف المبالغة في الإلزام وتعليق الحمل بالإتباع، أي إن لتحقق الحمل يجب أن يتبعوا السبيل. وهذا ما أشار إليه الزمخشري، إذ يقول: «أمروهم بإتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر، وأرادوا: ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم. والمعنى: تعليق الحمل بالإتباع»[2].

[1]– ينظر: الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ص 155

[2]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص539.

وقدّم الرازي سؤالا في صحة أن يأمر الشخص نفسه إذ قال:«"ولنحمل" صيغة أمر والمأمور غير الأمر، فكيف يصحّ أمر النفس من الشخص؟. فنقول: الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء، أي "إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم"»[1].

كما أشار أبو حيان إلى أنّ فعل الأمر في هذه الآية أفاد التأكيد والتشبيه بالثقل، فيقول: «وقوله: "ولنحمل" أخبر أنّهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالثقل، لكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشدّ تأكيدا في نفس السامع من المجازاة ... ولكونه خبرا حسن تكذيبهم فيه»[2].

ثم واصل كلامه بقول الزمخشري.

وممن ذهب مذهب الزمخشري أبو السعود، إذ يقول: «أي إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وإنّما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على أمرهم بالإتباع للمبالغة في تعليق الحمل بالإتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى "وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء"»[3].

---

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص35.

[2]– أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص139.

[3]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص32.

من مواطن هذا الالتفات كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ۝فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. [التوبة: الآيات 81 – 82].

فموضع الالتفات في هذا السياق الكريم، هو قوله تعالى "فليضحكوا ... وليبكوا" بصيغة الأمر لفظا، وفي معناه حمل دلالة الخبر عمّا سيؤول حالهم في الدنيا والآخرة، وأنّ هذا الشيء حتم وواجب. وهذا ما أشار إليه الزمخشري من خلال قوله: «معناه: فسيضحكون قليلا، وسيبكون كثيرا، جزاء: إلّا أنّه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنّه حتم واجب لا يكون غيره، يروى أنّ أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم»[1].

أمّا الرازي فقد ذهب إلى أنّ الضحك في الدنيا قليل كونها زائلة وفانية مقارنة بالبكاء في الآخرة الذي هو كثير ودائم وغير منقطع، فيقول: «ثم قال تعالى: "فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا" وهذا وإن ورد بصيغة الأمر إلّا أن معناه الإخبار بأنه ستحصل هذه الحالة، والدليل عليه قوله بعد ذلك "جزاء بما كانوا يكسبون" ومعنى الآية أنّهم وإن فرحوا وضحكوا في كل عمرهم، فهذا قليل لأن الدنيا بأسرها قليلة، وأمّا حزنهم وبكاؤهم في الآخرة فكثير، لأنّه عقاب

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص76.

دائم لا ينقطع، والمنقطع بالنسبة إلى الدائم قليل، فلهذا المعنى قال "فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا"»[1].

وذهب أبو حيان مذهب الرازي، فجعل القلة إشارة إلى الدنيا، أمّا الكثرة فإشارة إلى الآخرة، وأن الأمر هنا معناه الخبر عن حالهم، إذ قال: «والظاهر أن قوله "فليضحكوا قليلا"إشارة إلى مدة العمر في الدنيا"وليبكوا كثيرا "إشارة إلى تأبيد الخلود، فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر عن حالهم»[2].

أمّا القرطبي فقد أشار إلى أنّ معنى هذا الأمر في الآية هو التهديد وليس الضحك، فيقول: «أمر معناه معنى التهديد وليس أمرا بالضحك، والأصل أن تكون اللّام مكسورة فحذفت الكسرة بثقلها. قال الحسن: فليضحكوا قليلا في الدنيا وليبكوا كثيرا في جهنم، وقيل: أمر بمعنى الخبر أي إنّهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرا»[3].

وممن حذا حذو الزمخشري أبو السعود الذي يشير إلى أنّ دلالة الأمر في الآية هي تحتم وقوع المخبر به، فيقول: «وإخراجه في صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به، فإن

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج1، ص153.

[2]– أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص462.

[3]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص216.

أمر الأمر المطاع مما لا يكاد يتخلّف عنه المأمور به خلا أن المقصود إفادته في الأوّل هو وصف القلّة فقط وفي الثاني وصف الكثرة مع الموصوف»[1].

وجوّز البيضاوي الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم، وأنّ صيغة الأمر تدل على أنّه حتم واجب، إذ قال بعد ذكره للآية الكريمة «إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنّه حتم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة العدم»[2].

ج:إلى اسم الفاعل:

هو نوع آخر من أنواع الالتفات عالجه المفسرون والبلاغيون في مباحثهم، يتمثّل في العدول عن صيغة الفعل المضارع إلى صيغة اسمه، فالفعل المضارع كما هو معروف يشبه اسم الفاعل (يضارعه) وهذا الأخير يعمل عمل فعله.

وقد ورد هذا القسم في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الْشِمَالِ وكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدْ لَوْ اطْلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فَرَارًا ولَمُلِئَتْ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. [الكهف: الآية 18].

---

[1]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص89.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج10، ص70.

فموضع الالتفات في هذه الآية الكريمة هو في قوله عزّ وجلّ "باسط" بصيغة "فاعل"، بدلا من صيغة "يفعل" أو "فعل"، أي: (يبسط أو بسط).

وقد علّل الزمخشري هذا الأسلوب بجعل اللفظ حكاية حال ماضية مفسّرا ذلك تفسيرا نحويا، فيقول: «"باسط ذراعيه" : حكاية حال ماضية، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة كغلام زيد، إلّا إذا نويت حكاية الحال الماضية»[1].

ورأى الشوكاني ما رآه الزمخشري، إذا قال: «حكاية حال ماضية، لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى المضي كما تقرر في علم النحو»[2].

والشيء نفسه نجده أيضا عند كل من أبي السعود والبيضاوي[3] .

[1] – الزمخشري، الكشاف، ج3، ص571.

[2]– الشوكاني، فتح القدير، دار المعرفة، 2007، ط4، المجلد1، ج11، ص853.

[3]– ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج5، ص212،213. والبيضاوي،أنوارالتنزيل وأسرار التأويل،ج15،ص332.

في حين خالف أبو حيان بعض ما قاله الزمخشري فيقول: «وقوله: لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي ليس إجماعا بل ذهب الكسائي وهشام، ومن أصحابنا أبو جعفر بن مضاء: إلى أنه يجوز أن يعمل وحجج الفريقين مذكورة في علم النحو»[1].

وذهب السيوطي إلى رأي آخر يخالف فيه ما تقدم ذكره، فيقول: «الاسم يدل على الثبوت والاستمرار، والفعل يدل على التجدّد والحدوث، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر، فمن ذلك قوله تعالى: "وكلبهم باسط ذراعيه"، لو قيل "يبسط" لم يؤد الغرض: لأنه يؤذن بمزاولة الكلب البسط، وأنّه يتجدّد له شيئا بعد شيء، فباسط أشعر بثبوت الصفة»[2]

السيوطي إذن أقرّ بأن الاسم يدل على الثبوت والفعل يتجدّد ولا يصلح أن يأخذ أحدهما مكان الآخر، طبق هذه القاعدة على الآية التي نحن بصدد دراستها، فاكتفى بعرض قول أحدهم، وذلك بصيغة (قيل) دون تعليق، فالفعل "يبسط" يدل على المزاولة والتجدّد، عكس اسم فاعله "باسط" الذي يدل على ثبوت الصفة، فالمقصود إذن تبيان هيئة الكلب لا فعله.

[1] – أبو حيان، البحر المحيط، ج3، ص.106.

[2] – جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،ص420. وينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص960.

د:إلى اسم المفعول:

ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾. [هود: الآية 103].

فموضع الالتفات هو في قوله تعالى "مجموع" بصيغة اسم المفعول بدلا من الفعل المضارع "يجمع". وذكر المفسرون أن فائدة هذا العدول هي لدلالة اسم المفعول على ثبات معنى الجمع في هذا اليوم، وأنه واقع لا محالة،قال الزمخشري: «فإن قلت: لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعادا مضروبا لجميع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضا لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه ... وإن شئت فوازن بينه وبين قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾. [التغابن : الآية 9]. تعثّر على صحة ما قلت لك»[1].

[1] – الزمخشري، الكشاف، ج3، ص234–235.

وجعل البيضاوي اسم المفعول "مجموع" أبلغ من الفعل المضارع "يجمع" فيقول: «والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه من شأنه لا محالة، وأن الناس لا ينفكون عنه، فهو أبلغ من قوله تعالى "يوم يجمعكم ليوم الجمع" »[1].

ولم يزد أبو السعود[2]عن ما قدّمه البيضاوي.

المبحث الثالث: الالتفات من الأمر:

- إلى المضارع:

هو مبحث آخر من مباحث الالتفات يظهر فيه جمال نظم القرآن الكريم، إذ يدفعنا إلى التعجّب من حمل الآية لمعنى الخبر وقد اعترضها أمر، وهذا هو سر إعجاز النص القرآني، الذي لا يمكن لأي إنسان الإتيان بمثله، لكن بفضل الله عزّ وجلّ تفطّن المفسرون والبلاغيون إلى استخراج هذه المواضع وتفسيرها مع الوقوف عند غاياتها وأغراضها.

وأوّل مثال يصادفنا في هذا الالتفات قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ لَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلْنَاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الْصَّلَاةَ وَآتَوْا الْزَكَاةَ ثُمَ تَوَلّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرَضُونَ﴾. [البقرة: الآية 83].

---

[1] –البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج12، ص149.

[2] –ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص240.

فموضع الالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله عز وجلّ: "لا تعبدون" أتى بصيغة المضارع لكن المقصود منه هو فعل الأمر "لا تعبدوا" فعدل عنه لأنه الأبلغ، أشار المفسرون إلى هذا على رأسهم الطبري، إذ أثار سؤالا عن كيفية إخراج الكلام بصيغة الأمر في قوله تعالى: "وقولوا للناس حسنا"بالرغم من أنّه لم يسبقه أمر حيث كان السياق جاريا مجرى الخبر، فأجاب قائلا: «إن الكلام، وإن كان قد جرى في أوّل الآية مجرى الخبر فإنّه ممّا يحسن في موضعه الخطاب بالأمر والنهي، فلو كان مكان: "لا تعبدون إلّا الله" لا تعبدوا إلّا الله على وجه النهي من الله لهم عن عبادة غيره كان حسنا صوابا ... فكان معنى الكلام –لو كان مقروء كذلك وإذ قلنا لبني إسرائيل "لا تعبدوا إلّا الله"، كما قال جلّ ثناؤه في موضع آخر: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الْطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾. [البقرة: الآية 63]. فلما كان حسنا وضع الأمر والنهي في موضع "لا تعبدون إلّا الله" عطف بقوله: وقولوا للناس حسنا على موضع "لا تعبدون" وإن كان مخالفا كل واحد منهما معناه معنى ما فيه، لما وصفنا من جواز وضع الخطاب بالأمر و النهي موضع "لا تعبدون"، فكأنه قيل: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدوا إلّا الله وقولوا للناس حسنا»[1].

الغرض إذن عند الطبري هو حصول الحسن والجواز في وضع الخبر موضع الأمر والنهي.

[1]– الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص272،273.

في حين يذهب الزمخشري إلى أنّ هذا الأسلوب في الكلام هو إخبار عن معنى النهي، مشيرا إلى أنّ الأوّل أبلغ من الثاني لكون المنهي يسارع إلى الامتثال، فهو يخبر عنه فيقول: «قوله تعالى: "لا تعبدون": إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه وتنصره قراءة عبد الله وأبيّ "لا تعبدوا": ولابد من إرادة القول، ويدل عليه أيضا قوله "وقولوا"»[1].

أمّا أبو حيان فقد ذكر مجموعة من الوجوه التي تضمنتها هذه الآية، من بينها أنّها حكاية الحال المحذوفة، فيقول: «أن تكون محكية بحال محذوفة أي قائلين "لا تعبدون إلّا الله"، ويكون إذ ذاك لفظة لفظ الخبر ومعناه النهي، أي: قائلين لهم "لا تعبدوا إلّا الله " قاله الفرّاء، ويؤيده قراءة أبيّ وابن مسعود، والعطف عليه قوله: «وقولوا للناس حسنا»[2].

أضف إلى هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِ﴾. [البقرة : الآية 197]. فالالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى "فلا رفث ولا فسوق ولا جدال"،وكان الأصل أن يقال:فلا يرفث ولا يفسق و لا يجادل لكنه عدل إلى الأمر، وذلك لغايات بيّنها المفسرون واستنبطوها. يقول الطبري في

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج1، ص290.

[2]– أبو حيان، البحر المحيط، ج1، ص451.

هذا الشأن: «معنى قوله "ولا فسوق" النهي عن معصية الله في إصابة الصيد وفعل ما نهى الله المحرم عن فعله في حال إحرامه»[1].

الغرض من هذا القول إذن هو تخصيص الله تعالى المحرم بما نهاه عنه في حال إحرامه فلا يفسق من حلق وقص الأظفار وقتل الصيد ولا يرفث أي لا يجامع النساء.

في حين جعل القرطبي الرفث والفسوق للنهي، أمّا الجدال فللنفي، وهذا راجع ربما إلى اختلاف القراءات حول هذه الآية، فيقول:«وقيل: إن معنى: فلا رفث ولا فسوق : النهي، أي لا ترفثوا ولا تفسقوا، ومعنى: ولا جدال النفي، فلما اختلفا في المعنى خولف بينهما في اللّفظ. قال القشيري: وفيه نظر، إذ قيل: ولا جدال نهي أيضا، أي لا تجادلوا فلم فرّق بينهما»[2].

بينما ذكر أبو حيان معنيين احتماليين للآية الكريمة، الأول نفي فيكون إخبارا أمّا الثاني فهو نفي المراد به النهي، فاستشهد بآراء أصحاب المعاني الذين يأخذون بالاحتمال الثاني، ثم انتهى بعد ذلك إلى رأيه فيقول: «... والذي نختاره أنّها جملة صورتها صورة الخبر والمعنى على النهي، لأنّه لو أريد حقيقة الخبر لكان المؤدّي لهذا المعنى تركيب غير هذا التركيب،... فالذي يناسب المعنى الخبري نفي صحة الحج مع وجود الرفث والفسوق والجدال لا نفيهن

[1]–الطبري جامع البيان عن تأويل اي القران ،المجلد1، ص543،544.

[2]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص409.

فيه، هكذا الترتيب العربي الفصيح، وإنّما أتى في النهي بصورة النفي إيذانا بأن المنهي عنه يستبعد الوقوع في الحج حتى كأنه مما لا يوجد، ومما لا يصح الإخبار عنه بأنه لا يوجد»[1].

إن الغرض من هذا الأمر هو نفي صحة الحج مع وجود صفة الرفث والفسوق والجدال والإيذان بأن المنهي عنه يستبعد الوقوع في الحج حتى كأنه مما لا يوجد ومما لا يصح الإخبار عنه بأنه لا يوجد.

وكذلك قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتِ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُ لَهُنَ أَنْ يَكْتِمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَ إِنْ كُنَ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. [البقرة: الآية 228].

فموطن الالتفات في هذا السياق الكريم هو قوله تعالى "يتربّصن" الذي جاء بصيغة المضارع وهو يدل على الإخبار بدلا من فعل الأمر الذي تضمنته الآية، وقد أشار المفسرون إلى الغاية من هذا الالتفات، من بينهم الزمخشري إذ يقول: «فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربّص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر وأصل الكلام: وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله فكأنّهن امتثلن الأمر بالتربّص، فهو يخبر عنه موجودا ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله،

[1]– أبو حيان، البحر المحيط، ج2، ص277.

أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضا فضل تأكيد، ولو قيل: ويتربص المطلّقات، لم يكن بتلك الوكادة»[1].

الغاية إذن من إخراج الأمر في صورة الخبر هي تأكيد له، والإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأن المطلقات امتثلن بما أمرن به فكان الأمر إخبارا موجودا ومتحققا.وما زاده أيضا قوة، تأكيد هذا الأمر هو بناؤه على المبتدأ، وهذا دليل على براعة القرآن الكريم وتفنّنه في الأساليب وإيراده المعنى بألفاظ مختلفة.

أمّا الرازي فقدّم سؤالا عن الفائدة من التعبير عن الأمر بلفظ الخبر، فأجاب من خلال عرضه لوجهين مختلفين، فيقول: «... (الأول) أنه تعالى لو ذكره بلفظ الأمر لكان ذلك يوهم أنّه لا يحصل المقصود إلّا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار، وعلى هذا التقدير فلو مات الزوج ولم تعلم المرأة ذلك حتى انقضت العدة، وجب أن لا يكون ذلك كافيا في المقصود، لأنها لما كانت مأمورة بذلك لم تخرج عن العهدة إلّا إذا قصدت أداء التكليف، أمّا لما ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر فزال ذلك الوهم، وعرف أنه مهما انقضت هذه العدة حصل المقصود، سواء علمت ذلك أولم تعلم وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب»[2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج1، ص440.

[2]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج6، ص92–93.

فهنا دلّ خروج التكليف بلفظ الخبر على حصول المقصود سواء علمت المرأة بذلك أم لم تعلم. وفي الوجه الثاني اكتفى بنقل قول الزمخشري المذكور سابقا، ثم أشار إلى سؤال آخر وهو الغاية من تقديم الفاعل عن فعله في قوله تعالى "والمطلقات يتربّصن" فأصبحت "المطلقات" مبتدأ، والجملة الفعلية المتكونة من فعل وفاعل "يتربصن" خبرا لذلك المبتدأ، أجاب على هذا من خلال الاستشهاد بقول الجرجاني بأنك إذا قدّمت الاسم أفاد ذلك التأكيد والقوة، ويستعمل في أمرين، أحدهما تخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل، أمّا الثاني فهو تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل، أو الإخبار عن شيء ما، هذا ما يدفع العقل إلى الشوق في معرفة ذلك، كما هو أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة[1].

في حين ذهب الشعراوي إلى تبيان غرض هذا الالتفات بطريقة مخالفة، فيقول بعد سياقته للآية الكريمة: «... لنا أن نلحظ أن الحكم لم يرد بصيغة الأمر ولكن جاء في صيغة الخبر... وحين يريد الحق سبحانه وتعالى حكما لازما لا يأتي له بصيغة الأمر الإنشائي، ولكن يأتي له بصيغة الخبر، هذا آكد وأوثق للأمر ..... وقلنا إن الكلام الخبري يحتمل الصدق والكذب، إن الله قد قال ذلك فمن أراد أن يصدق كلام الله فلينفذ الحكم، ومن أراد أن يبارز الله بالتكذيب

[1]– ينظر: المرجع السابق، ص92–93.

ولا يصدقه، فلا ينفذ الحكم، ويرى في نفسه آية عدم التصديق، وهي الخسران المبين، ألـــيس ذلك أكثر إلزاما من غيره»[1].

الشعراوي إذا بيّن أن في الآية حكما تكليفيا يستحق التطبيق لمن آمن بربه، ومن أرد التكـــذيب به فلا ينفذه وله الخسران المبين.

كذلك قوله تبارك وتعالى:﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَ حَوْلَيْنِ كَـــامِلَيْنِ لِمَـــنْ أَرَادَ أَنْ يُـــتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَ وَكِسْوَتُهُنَ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وِسْـــعَهَا﴾. [البقـــرة: الآية 233].

حيث أتى الفعل "يرضعن" على صيغة المضارع حاملا صورة الخبر، وفي معناه دل على الأمر، فشكل هذا الشيء ظاهرة بلاغية، وهي الالتفات عبّـــر عنهـــا المفســـرون مـــن بيـــنهم البيضاوي، إذ يقول بعد ذكره للآية: «... أمر عبّر عنه بالخبر للمبالغـــة، ومعنـــاه النـــدب أو الوجوب، فيخص بما إذا لم يرتضع الصبي إلا من أمه أو لم يوجد له ظئر أو عجـــز الوالـــد عن الاستئجار»[2].

الغرض إذن من هذا الالتفات هو المبالغة، والندب والوجوب.

---

[1]– الشعراوي، تفسير الشعراوي، المجلد1، ص982–983–984.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج2، ص201.

إلى مثل هذا أشار أبو السعود، فيقول: «... وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الندب أو الوجوب إن خصّ بمادة عدم قبول الصبي ثدي الغير أو فقدان الظئر أو عجز الوالد عن الاستئجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهزّ عطفهن نحو أولادهن والحكم عام للمطلقات وغيرهن وقيل خاص بهنّ إذ الكلام فيهن»[1].

وهذا أيضا ما ذهب إليه الثعالبي، إذ يقول: «... خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، وعلى النّدب لبعضهن، فيجب على الأم الإرضاع، إن كانت تحت أبيه، أو رجعية، ولا مانع من علوّ قدر بغير أجر، وكذلك إن كان الأب عديما، أولم يقبل الولد غيرها »[2].

يتّضح لنا أنّ هناك اتفاق بين المفسرين في شرحهم لهذه الآية الكريمة، فهي تفيد المبالغة والندب أو الوجوب.

في الأخير نشير الى أن الالتفات من فعل الأمر الى الماضي لم يرد في القران الكريم وذلك بالاعتماد على التفاسير وكتب البلاغة.

[1]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج1، ص230،

[2]– الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج1، ص466.

الفصل الثالث

الالتفات العددي

المبحث الأول:الالتفات في المفرد.

المبحث الثاني: الالتفات في المثنى.

المبحث الثالث: الالتفات في الجمع.

المبحث الأول:الالتفات من المفرد:

أ:إلى المثنى:

نلمس جانب آخر من جوانب الالتفات المختلفة، يتمثّل في العدول عن لفظ المفرد إلى لفظ المثنى، مشكلا بذلك أغراض بلاغية متعدّدة، ووقف عندها المفسرون والبلاغيون، وقد ورد هذا النوع من الالتفات في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، نذكر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾. [يونس: الآية 78].

موضع الالتفات في هذه الآية الكريمة، هو قوله تعالى "لكما" مرّتين، بلفظ المثنى، وكان من المتوقع أن يقال (لك) بلفظ المفرد تماشيا مع خطاب بداية الآية الكريمة الذي أتى بصيغة المفرد، وذلك في قوله تعالى: "أجئتنا لتلفتنا"، وقد ذكر المفسرون فائدة هذا التحوّل، من بينهم أبو السعود إذ يقول: «وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدّم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام، واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر، وأمّا اللّفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصة»[1].

[1]- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص169.

فصاحب القول يقصد إذا أنّ تمّ في بداية الآية مخاطبة موسى عليه السلام باعتباره صاحب الرسالة ووزيره هارون، ثم جمع قوم فرعون بينهما في الخطاب، وذلك حيث الكبرياء شامل لهما عليهما السلام، وتصديق أحدهما يستلزم تصديق الآخر.

ومن صور الالتفات أيضا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الْدُنْيَا رَبَنَا لِيُضِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمْ۞ قَالَ قَدْ أَجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سُبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [يونس: الآيات 88 – 89].

عدول من المفرد في قوله عز وجل: "قال موسى ..." إلى المثنى في قوله سبحانه "أُجيبت دعوتكما"، وقد فصّل المفسرون في هذا الأسلوب من بينهم الطبري إذ يقول: «فإن قال قائل: كيف نسبت الإجابة إلى اثنين، والدعاء إنّما كان من واحد؟ قيل: إنّ الدّاعي وإن كان واحدا فإن الثاني كان مؤمّنا وهو هارون فلذلك نسبت الإجابة إليهما لأن المؤمن داع ...»[1].

إذ كان موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمّن بمعنى قوله آمين، وهو بمعنى استجب كما يحتمل أن يكون كل واحد منهما قد دعا الدعاء نفسه، وهذا ما أشار إليه الزمخشري في قوله:

[1] – الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج11، ص160.

«قرئ: دعواتكما، قيل: كان موسى يدعو وهارون يؤمّن، ويجوز أن يكونا جميعا يدعوان، والمعنى: إنّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته»[1].

يقول الشعراوي: «وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة، فإن انفعل واحد منهما لشيء، فلا بد من أن ينفعل الآخر لنفس الشيء، لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعيا بمثل هذا الدعاء، قد دعا هو أيضا بالدعاء نفسه، أو أنّه أي – هارون– قد دعا بهذا الدعاء سرّا»[2].

والشيء نفسه عند الرازي[3]، إذ لم يضف شيئا عمّا سبق ذكره عند غيره من المفسرين.

إضافة إلى ما سبق، نذكر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۞ أَلْقِيَا فِي جَهَنَمَ كُلُ كَفَارٍ عَنِيدٍ﴾. [ق: الآيات 23 –24].

موضع الالتفات في هذا النّص القرآني هو قوله تعالى "ألقيا" بصيغة المثنى، بعدما كان السياق في البداية بصيغة المفرد في قوله تعالى "وقال قرينه"، فبيّن المفسرون سرّ هذا العدول من بينهم الزمخشري، إذ يقول: «خطاب من الله تعالى للملكين السابقين السائق والشهيد:

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص168.

[2]– تفسير الشعراوي، ج9، ص6173.

[3]– لمزيد من التوضيحات ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج17، ص109.

ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين: أحدهما قول المبرد: إن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما، كأنه قيل: ألق ألق: للتأكيد، والثاني: أنّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا: خليليّ وصاحبي، وقفا وأسعدا، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين»[1].

أجاز الزمخشري أن تكون صيغة المثنى دالّة على المفرد، وذلك لوجهين أوّلهما لتكرار الفعل لغرض التأكيد، والثاني هو عادة العرب في إنزالهم المفرد منزلة المثنى.

كما وضّح أبو السعود هذا الأمر بقوله: «قال تعالى: "ألقيا في جهنم كل كفار" خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل و تكريره»[2].

يتبيّن من هذا القول أنّ الخطاب كان موجها للسائق و الشهيد و ذلك من خلال الاستناد على الآية السابقة، إذ يقول فيها عزّ وجلّ: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾. [ق: الآية 21].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص599.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص130،131 .

وهذا ما ذكره أيضا البغوي في قوله: «هذا خطاب للواحد بلفظ التثنية على عادة العرب، يقولون: ويلك ارحلاها وازجراها وخذاها وأطلقاها للواحد. ثم استشهد بقول الفراء: (وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه وسفره اثنان، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ومنه قولهم في الشعر للواحد خليلي. وقال الزجاج: هذا أمر للسائق والشهيد، وقيل: للمتلقين »[1].

نقل القرطبي كلام النحويين أمثال الخليل والأخفش والفراء والمازني والمبرد، وكان من المؤيدين للرأي القائل إن ذلك من عادة العرب في كلامها[2].

والملاحظ من كل هذه الآراء، أن جل المفسرين اتفقوا على أمر واحد حول تفسير هذه الآية الكريمة، ولكن مما يبدو لنا والله أعلم أنّ منهم من بالغ في الاعتداد بالالتفات حتى عدّ منه أساليب وأمثلة لا التفات فيها في الواقع، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الآية التي نحن بصدد دراستها، فإذا ما نظرنا إلى سياق الآيات التي سبقتها، نجده كله موجه للمثنى.كقوله تعالى:"وجاءت كل نفس معها سائق و شهيد"ق-21-

و بهذا فالضمير في قوله سبحانه:"ألقيا"يعود على السائق و الشهيد لكونهما الأقرب ذكرا وبهذا فان الآية ليست من باب الالتفات

[1]- البغوي، معالم التنزيل، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ، 1423ه-2002م، ط1،م7، ج26، ص360.

[2]-ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص447،448.

ومن مواطن هذا النوع من الالتفات، قوله عزّ وجل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ۞ فَبِأَيِ آلَاءِ رَبِكُمَا تُكَذِبَانِ۞ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ۞ فَبِأَيِ آلَاءِ رَبِكُمَا تُكَذِبَانِ﴾. [الرحمان: الآيات 19 – 23].

موضع الالتفات في هذا النص الكريم هو قوله تعالى "يخرج منهما" بصيغة المثنى، وكان مقتضى السياق أن يكون بصيغة المفرد "يخرج منه".

ويفسر لنا الزمخشري هذا التحول فيقول: «فإن قلت: لم قال: "منهما" وإنما يخرجان من الملح؟ قلت: لما التقيا وصار كالشيء الواحد، جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله، بل من دار واحدة من دوره. وقيل: لا يخرجان إلّا من ملتقى الملح والعذب»[1]

وذهب أبو السعود مذهب الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة إلى أن التقاء البحرين بعضهما ببعض جعلهما كالشيء الواحد، فأجاز ذلك أن يقال: "منهما"، قائلا بذلك: «اللؤلؤ الدرّ والمرجان الخرز الأحمر المشهور وقيل: اللؤلؤ كبار الدّر والمرجان: صغاره فنسبة خروجهما حينئذ إلى البحرين. مع أنهما يخرجان من الملح على ما قالوا. لما قيل إنهما لا

[1]–الزمخشري، الكشاف، ج6، ص8.

يخرجان إلّا من ملتقى الملح والعذب، أو لأنهما لمّا التقيا صارا كالشيء الواحد ساغ أن يقال: يخرجان من البحر مع أنّهما لا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه وهو الأظهر»[1].

والرأي نفسه عند البيضاوي إذ يقول: «قال عزّ وجلّ: "منهما" لأنه مُخرج من مجتمع الملح والعذب، أو لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحد فكأن المخرج من أحدهما كالمخرج منهما»[2].

ومن خلال ما ذكره المفسرون، نستنتج أنّ لمّا التقى البحران صار كالشيء الواحد، يتولّد منهما المرجان واللّؤلؤ، أي من تجمّع الماء المالح مع الماء العذب.

ومن أمثلة هذا العدول كذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ...﴾. [المائدة: الآية 64].

فجاءت لفظة اليد على ألسنة اليهود مفردة، في قوله تعالى: "يد الله مغلولة"، ثم أتت بعد ذلك بصيغة المثنى في قوله تعالى: "يداه مبسوطتان"، وقد بيّن المفسرون النكتة البلاغية من هذا التحوّل، يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم ثنيت اليد في قوله تعالى "بل يداه مبسوطتان"، وهي مفردة في "يد الله مغلولة"؟ قلت: ليكون ردّ قولهم وإنكاره أبلغ وأدلّ على إثبات غاية

[1]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص180.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل و أسرار التأويل، ج27، ص354.

السخاء له ونفي البخل عنه، وذلك أنّ غاية ما يبذله السخي بما له من نفسه أن يعطيه بيديه جميعا، فبنى المجاز على ذلك»[1].

فالأولى كناية عن نسبة البخل إلى الله، والثانية عبارة عن ردّ لليهود من الله تعالى، ودليل على إثبات غاية السخاء له سبحانه ونفي البخل عنه، فهو كريم ينفق لمن يشاء، وهو جواد على سبيل الكمال، فإن من أعطى بيده أعطى على أكمل الوجوه.

كما أشار أبو السعود إلى الغرض من هذا التحول وهو التنبيه على منحة الله تعالى لنعمتي الدنيا والآخرة، فيقول: «... وقيل التثنية للتنبيه على منحة تعالى لنعمتي الدنيا والآخرة، وقيل على إعطاءه إكراما، وعلى إعطاءه استدراجا »[2].

وهذا ما نلمسه أيضا عند البيضاوي، إذ اعتبر الانتقال الحاصل في الآية الكريمة من المفرد إلى المثنى، مبالغة في الردّ ونفي البخل عن الله عزّ وجلّ، وإثباتا لغاية الجود وتنبيها على منح الدنيا والآخرة[3].

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج2، ص267،وينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص97.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج3، ص58.

[3]– ينظر البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج6، ص449–450.

ب:إلى الجمع:

أشار البلاغيون والمفسرون في مباحثهم إلى مثل هذا النوع من الالتفات، محلّلين بذلك الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الظاهرة، فلاحظنا تعدّد الآراء حول تفسيرها، وما تحمله من وجوه بلاغية، كان لها الفضل في إعجاز القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.[البقرة: الآية 17].

فموضع الالتفات في هذا النص القرآني الكريم، هو في قوله تعالى "بنورهم" بلفظ الجمع والسياق يقتضي أن يأتي بلفظ المفرد تناسبا لقوله تعالى "الذي"، فأسهب المفسرون في شرح هذه الآية الكريمة مع بيان أغراضها ، فالزمخشري مثلا علّل سبب وضع "الذي" موضع "الذين"، إذ جعل هذه الآية كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾. [التوبة: الآية 69]. فالذي سوّغ ذلك أمران، يقول: «أحدهما: أنّ "الذي" لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة بجملة، وتكاثر وقوعه في كلامهم، ولكونه مستطالا بصلته، حقيق بالتخفيف، ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرته ثم اقتصروا به على اللّام وحدها في أسماء الفاعلين والمفعولين، والثاني: أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون، وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة، ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد أو قصد جنس

المستوقدين أو أريد الجمع أو الفوج الذي استوقد نارا، على أنّ المنافقين و ذواتهم لـم يشـبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، إنّما شبهت قصتهم بقصة المستوقد»[1].

فالزمخشري إذا رأى أنّ سبب مجيء "الذي" مكان "الذين" من زاويتين أوّلاهمـا جـواز ذلك لكون "الذي" اسما موصولا يمكن أن يعبّر عن الكثرة وهو خفيـف، وثانيتهمـا أن يكـون المراد جنس المستوقدين، وعلى أنّ المنافقين و ذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد، إنّمـا شـبهت قصتهم بقصة المستوقد.

وهذا ما ذهب إليه كل من الرازي وأبي السعود إذ وافقا الزمخشري[2].

أمّا ابن كثير فذهب إلى أنه التفت من الواحد إلى الجمع لأنه الأفصح في الكلام و الأبلـغ فـي النظام، يقول: «قلت: وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع ... وهـذا أفصـح فـي الكلام، وأبلغ في النظام»[3].

إضافة إلى هذا المثال السابق نذكر قوله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ حُـدُودُ اللهِ وَمَـنْ يُطِـعْ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيمُ﴾.[النسـاء: الآية 43].

---

[1]–الزمخشري، الكشاف، ج1، ص191،192.

[2]– ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم،ج1، ص.50، والرازي، مفاتيح الغيب، ج2، ص82.

[3] -ابن كثير،تفسير القرآن العظيم،ج1،ص95.

فموضع الالتفات في هذا السياق الكريم هو قوله تعالى "خالدين" بصيغة الجمع بعدما كان التعبير بصيغة المفرد في قوله سبحانه "يطع ... يدخله"، إذ ورد شرح هذه الآية عند المفسرين على النحو التالي: يقول الرازي: «ههنا سؤال، وهو أن قوله: "يدخله جنات"، إنما يليق بالواحد، ثم قوله بعد ذلك "خالدين فيها" إنما يليق بالجمع فكيف التوفيق بينهما؟ الجواب: أن كلمة "من" في قوله تعالى :"ومن يطع الله" مفرد في اللفظ جمع في المعنى، فلهذا صحّ الوجهان»[1].

فالغرض إذن من هذا التحول هو تبيان أن المفرد قد تحقق من ناحية اللفظ، أمّا من ناحية المعنى فقد حمل صيغة الجمع.

وهذا ما أشار إليه أبو حيان مستأنسا برأي ابن عطية بقول: «وحمل أولا على لفظ (من) في قوله "يطع، يدخله" فأفرد، ثم حمل على المعنى في قوله "خالدين" ... قال ابن عطية: وجمع "خالدين" على معنى "من" بعد أن تقدم الإفراد مراعاة للفظ "من" وعكس هذا لا يجوز»[2].

فمجيء كلمة "خالدين" بصفة الجمع بعد أن تقدم الإفراد، كان مراعاة للفظ "من"، ولا يجوز أن نعكس ذلك. وهذا وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم وفصاحته.

[1] – الرازي، مفاتيح الغيب، ج9، ص525.

[2] –أبو حيان، البحر المحيط، ج3، ص532.

كما صرح أبو السعود بالفكرة ذاتها، يقول: «قال تعالى: "خالدين فيها" حال مقدرة من مفعول "يدخله" وصيغة الجمع بالنظر إلى جمعيه من بحسب المعنى كما أن إفراد الضمير بالنظر إلى إفراده لفظا، و"ذلك" إشارة إلى ما مر من دخول الجنات الموصوفة بما ذكر على وجه الخلود وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال علوّ درجته»[1].

فالملاحظ أن جلّ المفسرين اتفقوا على الأمر نفسه حول شرح هذه الآية الكريمة.

مواطن هذا النوع من الالتفات أيضا، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمْ وَأُمُهُ آيَةٌ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ۞ يَأَيُهَا الْرُسُلُ كُلُوا مِنْ الْطَيِبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.[المؤمنون: الآية 50– 51].

الحديث في الآية الأولى كان عن عيسى عليه السلام وأمه مريم رضي الله عنها، ثم انتقل في الآية الثانية إلى التعبير بصيغة الجمع أي عن كل الرسل فاختلف المفسرون حول المراد بكلمة "الرسل"، فمثلا الزمخشري يقول:«هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما، وكيف الرسل، إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في

[1]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص154.

زمانه نودي لذلك، ووصى به ليعتقد السامع أن أمرا نودي له جميع الرسل ووصوا به، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه»[1].

الغرض إذن من ورود كلمة الرسل بصيغة الجمع هو التعميم، والإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك ووصى به ويجب أن يؤخذ به ويعمل عليه.

وعلى هذا النحو أثار الرازي سؤالا أجاب عنه من خلال وجوه جمع فيها آراء عدّة، يقول: «اعلم أن ظاهر قوله (يا أيها الرسل) خطاب مع كل الرسل، وذلك غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم؟ فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجوه: أحدها أنّ المعنى الإعلام بأن كل رسول نودي في زمانه بهذا المعنى ووصي به ليعتقد السامع أن أمرا نودي له جميع الرسل ووصّوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه. وثانيها: أن المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل، وإنما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد: أيها القوم كفوا عني أذاكم، ومثله(الذين قال لهم الناس) وهو نعيم بن مسعود كأنه سبحانه لما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك، بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا إلا بذلك

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص234.

ليعلم رسولنا أن هذا التثقيل ليس عليه فقط، بل لازم على جميع الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: هو قول محمد بن جرير إن المراد به عيسى عليه السلام ...»[1].

وختم الرازي قوله هذا بتقديم رأي خاص به داعما الوجه الأول وبهذا يكون قد وافق الزمخشري.

أمّا القرطبي فاكتفى بعرض أقوال العلماء دون أن يقدّم رأيه الخاص. يقول: «قال بعض العلماء: و الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه أقامه مقام الرسل ...كما هو الحال عند الزجاج. وقال الطبري:(الخطاب لعيسى عليه السلام ... وقيل: إن هذه المقالة خوطب بها كل نبي، لأن هذه طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها ... إنما خوطب كل واحد في عصره)[2].

أما البيضاوي فقد أشار إلى أنّ قوله تعالى "يأيها الرسل" نداء وخطاب لجميع الأنبياء لكنه خصّص لعيسى عليه السلام، وذلك تنبيها على أن تهيئة أسباب التنعّم لم تكن له خاصة، بل هي مباحة لجميع أنبيائه، ولفظ الجمع هنا أفاد التعظيم[3].

---

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج23، ص105.

[2]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15، ص49،50.

[3]– ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج18، ص472.

ومن أمثلة الالتفات أيضا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَ لِعِدَّتِهِنَ وَأَحْصُوا الْعِدَةَ وَاتَقُوا اللهَ رَبَّكُمْ...﴾. [الطلاق: الآية 1].

عدول من المفرد في قوله تعالى "يا أيها النبي" إلى الجمع في قوله سبحانه: "طلقتم ... أحصوا ... اتّقوا"، وذلك لأغراض بلاغية ذكرها المفسرون في أقوالهم من بينهم الزمخشري إذ يقول: «خصّ النبي صلى الله عليه وسلّم بالنداء وعمّ بالخطاب لأنّ النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهارا لتقدمه واعتبارا لترؤسه، وأنه مدرة قومه ولسانهم، والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وسادّا مسدّ جميعهم»[1].

فالله سبحانه وتعالى خصّ النبي عليه الصلاة والسلام بالنداء في بداية الأمر، ثم عمّم بعد ذلك بضمير المخاطب "أنتم" لكونه إمام أمّته وقدوتهم.

أمّا الرازي فقدّم الآية من وجهين، يقول: «أحدهما: أنّه نادى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم خاطب أمته لما أنه سيدهم وقدوتهم، فإذا خوطب خطاب الجمع كانت أمته داخلة في ذلك

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج6، ص138.

الخطاب... وثانيهما: أنّ المعنى يا أيها النبي قل لهم إذا طلّقتم النساء فأضمر القول، وقال الفراء: خاطبه وجعل الحكم للجميع»[1].

يتضح لنا أنّ الرازي قدّم الوجه الأول للآية على الصورة التي قدّمها الزمخشري، ثم أضاف الوجه الثاني الذي بيّن فيه وجود قول محذوف، فتقدير الكلام في نظره هو(يا أيها النبي قل لهم ...)، ومن هنا كانت المخاطبة للرسول عليه الصلاة والسلام، أمّا الحكم فكان للجميع أي له ولأمته صلى الله عليه وسلم.

ذكر القرطبي هذه الأقوال، وزاد عليها قوله: «الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، خوطب بلفظ الجماعة تعظيما وتفخيما ...، وقد قيل: إنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، وغاير بين اللفظين من حاضر وغائب وذلك لغة فصيحة ... تقديره: يا أيها النبي قل لهم: إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدّتهن، وهذا هو قولهم. إن الخطاب له وحده، والمعنى له وللمؤمنين، وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله "يا أيها النبي". فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعا له، قال: "يا أيها الرسول"، قلت: ويدل على صحة هذا القول نزول العدة في أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ... وقيل: المراد به نداء النبي صلى الله عليه وسلم تعظيما»[2].

---

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج30، ص29.

[2]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج21، ص26،27،28

وعلى هذا يرى القرطبي أن الخطاب كان موجها للنبي صلى الله عليه وسلم من ناحية اللفظ، وللمؤمنين من ناحية المعنى.

ذهب ابن كثير إلى أن الخطاب كان له ولأمته عليه الصلاة والسلام، لكن الله تعالى ابتدأ الكلام بنبيه وذلك تشريفا وتكريما له، ثم أتبعه بذكر أمته[1].

ففي الآية تنبيه من الله للرسول عليه الصلاة والسلام لمتابعة قضايا أمته، وحرصه على عدم وقوع الطلاق، وإن وقع يجب على كلا الطرفين متابعة الشروط والتقيد بها، لهذا خصّ الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالنداء، ثم خاطب أمته لكونه عليه الصلاة والسلام المسؤول عليهم والحريص بهم.

كما نجد الالتفات في قوله سبحانه: ﴿الَذِينَ قَالَ لَهُمْ النَاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. [آل عمران: الآية 173].

نعني به العدول من المفرد إلى الجمع، وذلك في قوله تعالى "قال لهم الناس إنّ الناس". فكلمة "الناس" الأولى كانت للفظ الواحد اذ قصد بها نعيم بن مسعود الأشجعي لكن عبر عنه بلفظ الجماعة على عادة العرب في التعبير عن الواحد بالجمع، فسّر الزمخشري هذا بقوله: «فإن قلت: كيف قيل: "الناس". إن كان نعيم هو المثبط وحده؟ قلت: قيل ذلك لأنه من جنس

[1]– ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص1883.

الناس، كما يقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرود، وما له إلا فرس واحد وبرد فرد. أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويثبطون مثل تثبيطه»[1].

بمعنى أنّ المخاطب من جنس الناس، ويصح أن يخاطب بلفظ الجماعة بدل المفرد.

وذهب أبو السعود إلى أن المراد بالناس الأولى ركب من عبد قيس، فيقول: « يعني الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي وإطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال: فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وما له سوى فرس فرد وغير ثوب واحد أو لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه»[2].

أمّا الثعالبي، فقد ضعّف أن يكون المقصود بلفظ "الناس" الأولى نعيم بن مسعود إذ قال: «فالناس الأول هم الركب، والناس الثاني: عسكر قريش هذا قول الجمهور، وهو الصواب، وقول من قال: أن الآية نزلت في خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان، وأن الناس هنا هو نعيم بن مسعود. قول ضعيف»[3].

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج1، ص660،661، وينظر: الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ص119.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص113،114.

[3]– الثعالبي، الجواهر الحسان، ج1، ص334.

فاعتبر الناس الأولى عائدة على الركب، أمّا الثانية فعلى عسكر قريش، وهذا عكس ما ذهب إليه جلّ المفسرين.

ومن أشكال الالتفات أيضا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَبَعُوا أَمْرَ كُلِ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.[هود: الآية 59].

عدول من المفرد إلى الجمع في قوله سبحانه "وعصوا رسله" مع أنه سبحانه لم يرسل إليهم إلّا رسولا واحدا، وإنما جمع للدلالة على أنّ من كفر برسول واحد كأنما كفر بجميع الرسل، وهذا ما صرّح به الزمخشري في قوله: «لأنهم إذا عصوا رسولهم، فقد عصوا جميع رسل الله»[1].

والرأي نفسه عند الرازي، إذ يقول: «والسبب فيه أنهم إذا عصوا رسولا واحدا، فقد عصوا جميع الرسل، لقوله تعالى "لا نفرّق بين أحد من رسله" وقيل: لم يرسل إليهم إلّا هودا عليه السلام.» [2]

وزاد القرطبي على هذا فقال: «وقيل: عصوا هودا والرسل قبله وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول جحدوا الكل»[3].

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص210.

[2] ـ الرّازي، مفاتيح الغيب، ج 18، ص16.

[3]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج9، ص54.

أي لو أرسل اليهم ألف رسول لكفروا بهم جميعا.

أمّا أبو السعود فرأى أن الجمع هنا ليس كما ذكر المفسرون، إنما لتفظيع حال الكافرين وإظهارا لكمال كفرهم وعنادهم، فيقول: «جمع الرسل مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم وإظهارا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللّاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لا نفرق بين أحد من رسله»[1].

وعلى ما يبدو، فإن ما ذهب إليه أبو السعود أولى من أن الرسول في هذه الآية واحد وهو هود عليه السلام، لكنه جمع لغرض تفظيع حال الكفار، وتبيان طغيانهم، والمعروف أنّ كل رسول له طريقتان في الدعوة هما طريقة الترغيب وطريقة الترهيب، فكانت دعوة هود عليه السلام بمثابة دعوة كل الرسل، ولو أرسل كل الرسل إلى عاد ما اهتدوا، لذا ناسب أن تأتي كلمة الرسل بصيغة الجمع.

[1]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص219.

المبحث الثاني: الالتفات من المثنى:

أ-إلى المفرد:

هذا النوع من الالتفات يخالف التحوّل من المفرد إلى المثنى، كما أنّه أقل ورودا منه. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَتِنَا إِنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ۞ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَ رَبِ الْعَالَمِينَ۞ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾. [الشعراء: الآيات 15- 16 – 17].

فالالتفات في هذه الآية الكريمة واضح، إذ أتى الكلام في البداية بصيغة المثنى في قوله سبحانه: "فاذهبا ... فأتنا ... فقولا"، ثم انتقل إلى التعبير بلفظ المفرد في قوله عزّ وجلّ: "إنّا رسول"، وقد بيّن المفسرون الغرض من هذا العدول يقول الزمخشري: «فإن قلت: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾. [طه: الآية 47]؟ قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته، وجعل ههنا بمعنى الرسالة، فجاز التسوية فيه – إذا وصف به – بين الواحد والتثنية والجمع، كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم، وزور ... ويجوز أن يوجد، لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكما واحدا، فكأنهما رسول واحد، أو أريد أن كل واحد منّا»[1].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص382،383.

فكان الحديث في الآيات عن موسى عليه السلام، فهو بمثابة مرسل ورسالة، وكذلك هرون عليه السلام باعتباره تابعا له، لهذا يجوز أن يوحدا لاتفاقهما على شريعة واحدة، فللأخوة حكم واحد فكأنهما رسول واحد.

أما الرازي فأثار سؤالا عن سبب تثنية الرسول في هذه الآية الكريمة، فأجاب عنه بأوجه كثيرة، يقول: «أحدهما: أن الرسول اسم للماهية من غير بيان أن تلك الماهية واحدة أو كثيرة، والألف واللّام لا يفيدان إلّا الوحدة لا الاستغراق ... وثانيها أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة... فيكون المعنى "إنّا ذوو رسالة رب العالمين"، وثالثها أنهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما رسول واحد، و رابعها المراد كل واحد منا رسول، وخامسها ما قاله بعضهم أنه إنما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله (إنا) فكما في قوله تعالى: "إنّا أنزلناه"[1] وهو ضعيف»[2].

وعلّل أبو حيان هذا الرأي بأن الرسول: «إمّا لأنه مصدر بمعنى الرسالة فجاز أن يقع مفردا خبرا لمفرد فما فوقه، وإما لكونهما ذوي شريعة واحدة فكأنهما رسول واحد»[3].

---

[1]- يوسف، الآية-2-

[2]- الرازي، مفاتيح الغيب، ج24، ص124.

[3]- أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص9.

وممّا يبدو لنا في هذا المقام، أنّ الآراء حول تفسير هذه الآية متعددة ومختلفة، لكنها تـــوحي إلى معان متقاربة.

ومن صور الالتفات أيضا قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّـــذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. [طه: الآية 49 – 50].

العدول من المثنى في قوله عزّ وجلّ "ربكما" ، إلى المفرد في قوله ســـبحانه "يـــا موســـى"، فخاطب هنا "موسى وهارون"، لكن النداء موجّه لموسى عليه السلام دون غيـــره، وقـــد بـــيّن المفسرون السبب في ذلك فيقول الزمخشري: «خاطب الاثنين ووجه النداء إلى أحـــدهما وهـــو موسى، لأنه الأصل في النبوة وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته علـــى استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هارون و الرتة في لسان موسى، ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مُهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.[الزخرف: الآية 52]»[1].

فتخصيص النداء لموسى وحده لكونه الأصل في النبوة، وهـــارون وزيـــره وتابعـــه، ورغبـــة فرعون في استنطاق موسى عليه السلام دون أخيه لفصاحته، والرتة في لسان موســـى عليـــه السلام.

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص85.

ذهب القرطبي إلى أن الأمر اقتصر على موسى وحده مع جواز حمله على وجه آخر، يقول: «ذكر فرعون موسى دون هارون لرؤوس الآي. وقيل: خصصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية، وقيل: إنّهما جميعا بلّغا الرسالة وإن كان ساكتا، لأنّه في وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا انقطع وازره الآخر وأيده، فصار لنا في هذا البناء فائدة علم: أنّ الاثنين إذا قُلّدا أمرا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود مستغنى عنه في وقت دون وقت أنهما أدّيا الأمر الذي قلّدا، وقاما به واستوجبا الثواب، لأن الله تعالى قال: "اذهبا إلى فرعون"، وقال: "اذهب أنت وأخوك" وقال: "فقولا له"، فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا في وقت الخطاب بقوله: "فمن ربكما"، أنه كان حاضرا مع موسى»[1].

يتّضح لنا من هذا القول أنه حتى وإن كان النداء موجها لموسى عليه السلام وحده دون غيره، إلّا أنّ سياق الآيات الأخرى يوحي لنا بأن هارون كان معه و وازره طيلة نبوته.

كرّر الرازي ما ذكره الزمخشري دون إبداء لرأيه[2] .

[1] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص70.

[2]– ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص66.

وأخذ أبو حيان تعليل ابن عطية الذي قال فيه: «إذ كان صاحب عظم الرسالة وكريم الآيات»[1]. ثم نقل قول الزمخشري الذي سبق ذكره دون أن يبدي رأيه الخاص في الآية الكريمة.

وهذا ما ذهب إليه الشوكاني، إذ اعتبر سبب تخصيص موسى عليه السلام بالنداء هو كونه الأصل في الرسالة، ثم استشهد بقول الفراء في ذلك، وهو يقول: «يكلم الاثنين ثم يجعل الخطاب لواحد، لأن الكلام إنما يكون من الواحد لا من الجميع، ومثله ممّا جعل الفعل على اثنين وهو لواحد»[2].

أي إن فرعون خصّ موسى بالكلام لأن موسى هو من كان يكلم فرعون مع وجود هارون.

وممّا يبيّن لنا أن فرعون أراد استنطاق موسى عمدا من خلال سؤاله له، وجود علة في لسانه هو قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مُهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَينُ﴾.[الزخرف: الآية 52].

[1]– أبو حيان، البحر المحيط، ج6، ص232.

[2]– محمود سليمان أحمد مسمع، البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني (فتح القدير)، الجامعة الاسلامية غزّة، 1428 هـ/ 2007م، ص143.

أشكال الالتفات كثيرة منها أيضا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى۞ فَقُلْنَا يَا آدَمَ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.[طه: الآية 116-117].العدول من خطاب الاثنين في قوله سبحانه "يخرجنكما" إلى خطاب الواحد في قوله عزّ وجلّ "فتشقى"، وقد فسّر الزمخشري علة الإفراد في الآية الكريمة بقوله: «إن شقاء الرجل إذا حصل تضمّن شقاء المرأة معه، إذ قال(إنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد اشتراكهما في الخروج، لأن من ضمن شقاء الرجل، وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها، مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء : التعب في طلب القوت، وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه»[1].

فإسناد فعل الشقاء إلى آدم عليه السلام وحده دون حواء لاشتراكهما في الخروج، كذلك مراعاة للفاصلة القرآنية ولم يضف أي من الرازي[2]، وأبو حيان[3] عمّا ذكره الزمخشري.

في حين ذهب القرطبي إلى أنّ الشقاء كان مقتصرا على آدم وحده، معلّلا ذلك بثلاثة أوجه، إذ قال: «يعني: أنت وزوجك، لأنهما في استواء العلّة واحد، ولم يقل: فتشقيا، لأن

[1]- الزمخشري، الكشاف، ج4، ص113.

[2]- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص125.

[3]- ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج6، ص263.

المعنى معروف، وآدم عليه السلام هو المخاطب وهو المقصود. وأيضا لمّا كان الكادّ عليها والكاسب لها، وكان بالشقاء أخصّ. وقيل: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده، وهو شقاوة البدن ألا ترى أنّه عقّبه بقوله "إنّ لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى" أي: في الجنة، "وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى" فأعلمه بأنّ له في الجنة هذا كله: الكسوة والطعام والشراب والمسكن، وأنّك إن ضيّعت الوصية، وأطعت العدوّ، أخرجكما من الجنة، فشقيت تعبا ونصبا، أي: جُعت وعريت وظمئت وأصابتك الشمس، لأنك تُردّ إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة. وإنّما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقيان، ليفهمنا أنّ نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج»[1].

أمّا أبو السعود فجعل أصالة الرجل في أمور الدنيا من الأسباب التي أفرد فيها اللّفظ، إذ قال: «وإسناد الشقاء إليه خاصة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معا لأصالته في الأمور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادئ المعاش، وذلك من وظائف الرجال»[2].

ومن مواطن هذا الالتفات كذلك، قوله تبارك وتعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.[التوبة: الآية 62].

---

[1]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص148،149.

[2] –أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص45.

حيث أسند الفعل "يُرضي" إلى ضمير الإفراد لا إلى ضمير التثنية كما يقتضيه السياق، وقد اختلف المفسرون في تحديد ما يحيل إليه الضمير في الفعل "يرضوه"، فهناك من يقول إنّه يعود على الله ورسوله، وهناك من يقول إن المقصود منه هو الرسول عليه الصلاة والسلام فقط.

وقيل كذلك إنّه عائد على الله عزّ وجلّ فقط، وهذا ما سنراه الآن من خلال عرضنا لأقوال المفسرين. يقول الزمخشري: «وإنّما وحّد الضمير، لأنه لا تفاوت بين رضا الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانا في حكم مرضيّ واحد، كقوله: إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني، أو: "والله أحق أن يرضوه" ورسوله كذلك»[1].

وبهذا يكون الزمخشري من أصحاب القول الأول.

ساهم الرازي في تحليل هذه المسألة، إذ حمّل على الآية وجوه كثيرة دون ذكر لرأيه، فيقول: «الأول: أنه تعالى لا يذكر مع غيره بالذكر المجمل، بل يجب أن يفرد بالذكر تعظيما له. والثاني: أن المقصود بجميع الطاعات والعبادات هو الله تعالى، فاقتصر على ذكره ... الثالث: يجوز أن يكون المراد يرضوهما، فاكتفى بذكر الواحد ...و الرابع: أنّ العالم بالأسرار والضمائر هو الله تعالى، وإخلاص القلب لا يعلمه إلّا الله، فلهذا السبب خصّ تعالى

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص62.

نفسه بالذكر. الخامس: لمّا وجب أن يكون رضا الرسول مطابقا لرضا الله تعالى، وامتنع حصول المخالفة بينهما وقع الاكتفاء بذكر أحدهما ... السادس: التقدير: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك»[1].

أمّا أبو السعود فيرى أنّ الضمير عائد على الرسول صلى الله عليه وسلم، وحده باعتباره كان رفيقا بهم وساترا لعيوبهم، إذ يقول: «وإفراد إرضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي قبل ذلك منهم، ولم يكذّبهم للإيذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة إلى إرضائه صلى الله عليه وسلم، إنّما لم يكذبهم رفقا بهم وسترا لعيوبهم، لا عن الرضا بما فعلوا»[2].

يظهر لنا أنّ الرأي الأول هو القريب من الرجحان، وذلك لوجود ملائمة بينه وبين السياق الذي وردت فيه الآية التي سبقت الآية التي نحن بصدد دراستها، إذ أخبرت عن المنافقين الذي يتعمدون إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام، وبهذا يكون الضمير عائدا على الله ورسوله لتوحد الرضاءين، والإشعار بأن إرضاءه عليه الصلاة والسلام هو في الوقت ذاته إرضاء لله تعالى.

---

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج16، ص121،122.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج4، ص78.

وشبيه بالآية السابقة في عود الضمير مفردا على الله ورسوله، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾.[النور: الآية 51]. إذ جاء الفعل "يحكم" مفردا، وكان مقتضى السياق أن يأتي مثنى، والسبب في ذلك هو توحيد الحكم والإشعار بأن ما ينطق به الرسول هو بعينه حكم الله [1].

وفي قوله تعالى أيضا: ﴿إِذَ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الْشِمَالِ قَعِيدً﴾. [ق: الآية 17].

التفات من المثنى في قوله تعالى "المتلقيان" إلى المفرد في قوله عزّ وجلّ "قعيد"، وقد قيل في سبب ذلك أن أحدهما يدل على الثاني، لذا حذف واحد منهما، يقول الزمخشري: «والقعيد: القاعد، كالجليس بمعنى الجالس، وتقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه»[2].

ولم يضف أي من أبي السعود[3] والشوكاني[4] عمّا قاله الزمخشري.

---

[1]– ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص95.

[2]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص597.

[3]– ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص129.

[4]– ينظر: محمود سليمان أحمد مسمح، البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني (فتح القدير)، ص144،145.

ب:إلى الجمع:

يكون الخطاب فيه بلفظ الجمع بدلا من المثنى للفائدة ذاتها التي تكون في العدول عن المفرد إلى الجمع، فيكون الحكم فيه عاما للجميع لكن يخاطب به المثنى ثم يعمّم.

أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَي وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الْصَلَاةَ وَبَشِرُ المُؤْمِنِينَ﴾.[يونس: الآية 87]. فموضع الالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله عزّ وجلّ "واجعلوا ... وأقيموا"، بصيغة الجمع، وكان من المتوقع أن يقال "واجعلا ... وأقيما" حتى يتماشى مع ما تقدّم من مخاطبة موسى عليه السلام وأخيه، لكنه عدّل إلى الجمع لأغراض بيّنها المفسرون.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: كيف نوّع الخطاب، فثنى أوّلا ثم جمع، ثم وحّد آخر؟ قلت: خوطب موسى وهارون عليهما السلام–أن يتبوّءا لقومهما بيوتا، ويختاراها للعبادة،وذلك مما يفوّض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خصّ موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيما لها وللمبشر بها»[1].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج3، ص.166، وينظر: الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، ص122،123.

الآية تحمل نوعان من الالتفات: الأول مخاطبة موسى وهارون عليهما السلام لكونهما اللذين يقرّران قواعد النبوة ويختاران بيوتا للعبادة، ثم انتقل السياق إلى الجمع لأن ذلك واجب على الكلّ بهذا يكون التفاتا من المثنى إلى الجمع، أمّا النوع الثاني فتحوّل السياق من خطاب الجماعة إلى الخطاب الواحد وذلك لتخصيص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيما له.

ذهب إلى شبيه من هذا الرازي، إذ قال: «إنه تعالى خصّ موسى وهرون في أوّل هذه الآية بالخطاب، فقال: (أن تتبوءا لقومكما بمصر بيوتا)، ثم عمّم هذا الخطاب فقال: (واجعلوا بيوتكم قبلة) والسبب فيه أنّه تعالى أمر موسى وهرون أن يتبوأ لقومهما بيوتا للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم جاء الخطاب بعد ذلك عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الكل، ثم خصّ موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال: (وبشّر المؤمنين)، وذلك لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة، فخصّ الله تعال موسى بها، ليدل بذلك على أن الأصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هرون تبع له»[1].

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج17، ص154.

وقد ذكر الزركشي ما قاله كل من الزمخشري والرازي، من أنّ الخطاب إنّما كان عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن الجميع مأمورون بها، ثم خصّ موسى بالبشارة والإنذار[1].

وعلّل الشّوكاني هذا الأسلوب بقوله: «لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء ثم جعل عاما في استقبال القبلة وإقامة الصلاة لأن ذلك واجب على الجميع لا يختصّ بالأنبياء ثم جعل خاصا بموسى لأنه الأصل في الرسالة وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيما للبشارة وللمبشر بها، وقيل: إنّ الخطاب في "وبشر المؤمنين" لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم على طريقة الالتفات والاعتراض. والأولى: أولى»[2].

و على هذا فإن جلّ المفسرين اتفقوا على الشيء نفسه وتقاربت آراؤهم وأقوالهم حول تفسير هذه الآية.

كما نجد الالتفات في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَذَانِ خَصمَانِ اخْتَصِمُوا فِي رَبِهِمْ فَالَذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابُ مِنْ نَارٍ يُصَبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمْ الْحَمِيمُ﴾. [الحج: الآية 19].

[1]– ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص833.

[2]– محمد بن علي محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير، ص638.

ونعني به العدول من قوله سبحانه "اختصموا" بلفظ الجمع، كان ظاهر السياق يقتضي أن يأتي مثنى أي اختصما. لكنه انتقل إلى لفظ الجمع، واختلف المفسرون في المراد بهذين الخصمين. فالزمخشري يرى أن الجمع جاء حملا على المعنى، والمثنى جاء حملا على اللّفظ. إذ قال: «الخصم: صفة وصف بها الفوج أو الفريق، فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان، وقوله: (هذان): للفظ، و(اختصموا) للمعنى، كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَى إِذَا خَرَجُوا﴾.[محمد: الآية 16]. ولو قيل: هؤلاء خصمان، أو اختصما: جاز، يراد المؤمنون والكافرون»[1].

لعلنا نلاحظ أن الزمخشري لم يفسّر سرّ ذلك العدول الحاصل في الآية، إنّما اكتفى بدراستها لغويا عن طريق قوله أن "اختصموا" للمعنى و"هذان" للّفظ.

كرّر الرازي هذا الرأي، مضيفا إليه قوله في الوجوه التي تعدّدت في تفسير "الخصمين" إذ قال: «ذكروا في تفسير الخصمين وجوها أحدها المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وأنّ كل الكفار يدخلون في ذلك ... وثانيها: روى أن أهل الكتاب قالوا: نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا، فهذه خصومتهم في ربهم. وثالثها: روى قيس بن عبادة عن أبي ذر الغفاري رحمه الله أنّه

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص183.

كان يحلف بالله أن هذه الآية نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بـــدر. حمـــزة وعلـــي وعبيد ابن الحارث عتبة وشيبة ابن ربيعة والوليد بن عتبة، وقال علي عليـــه الســـلام أن أول من بحثوا للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة. و رابعها: قال عكرمة هما الجنة والنـــار، والأقرب هو الأول لأن السبب وإن كان خاصا فالواجب حصل الكلام على ظاهره»[1].

الملاحظ هنا أن الرازي بعد عرضه لمختلف الآراء التي تحوم حول شرح الآيـــة الكريمـــة، أيّد في الأخير الرأي الأول القائل إن الواجب حمل الكلام علـــى ظـــاهره، والمقصـــود بلفـــظ "اختصموا" المؤمنون والكافرون معا.

يرى أبو السعود أنّ الخصام المذكور في الآية يمكن أنه لم يجر في الحقيقة، إنّمـــا مجـــازا من خلال التحاور، إذ قال: «وإنما قيل: "اختصموا" في ربهم حملا على المعنى، أي اختصموا في شأنه عزّ وجلّ، وقيل: في دينه، وقيل: في ذاته وصفاته، والكل من شؤونه تعـــالى، فـــإن اعتقاد كل من الفريقين بأحقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه، وبناء أقوالـــه وأفعالـــه عليه خصومة للفريق الآخر، وإن لم يجر بينهما التحاور والخصام، وقيل: تخاصـــمت اليهـــود والمؤمنون، فقالت اليهود: «نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبيا قبل نبيكم، وقـــال المؤمنـــون نحن أحق بالله منكم آمنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثـــم

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج23، ص22،23.

كفرتم به حسدا، فنزلت: "فالذين كفروا" تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: "يفصل بينهم يوم القيامة"»[1].

أما البيضاوي فقد أجاز أن يقال: "اختصما" مكان "اختصموا"، فيقول: «"هذان خصمان" أي فوجان مختصمان، ولذلك قال "اختصموا" حملا على المعنى ولو عكس لجاز، والمراد بهما المؤمنون و الكافرون »[2].

أمّا حسن طبل فقد رفض تماما ما ذهب إليه كل من الزمخشري، البيضاوي في إجازتهما قول "اختصما" مكان "اختصموا"، وذلك استنادا إلى الآية التي سبقت الآية التي نحن بصدد دراستها، يقول عزّ وجلّ: ﴿إِنَ الَذِينَ آَمَنُوا وَالَذِينَ هَادُوا وَالصَابِئِينَ وَالْنَصَارَى وَالْمَجُوسُ وَالَذِينَ أَشْرَكُوا إِنَ اللهَ يُفَصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.[الحج: الآية 17].

بيّنت هذه الآية المراد بالخصمين وهما تلك الفرق المختلفة، فجعل حسن طبل التثنية في قوله تعالى "هذان خصمان" للدلالة على أن تلك الفرق سوف يفصل الله بينهما يوم القيامة إلى فريقين –مؤمنين وكفار–، أما الجمع في "اختصموا" فهو دلالة على الحال التي كانت عليها

[1] – أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص101.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج17، ص442.

تلك الفرق في الدنيا من تعدّد المذاهب في قضية الدين، وعلى هذا فلا يجوز التعبير عن هـذا الاختلاف بلفظ التثنية "اختصما"[1].

نلاحظ من خلال ما قدّمناه من آراء وأقوال، وكذلك السياق الذي جاءت ضـمنه الآيـة، أن المراد بالخصمين جميع الكفار وجميع المؤمنين، فالعبرة تكون بعمـوم اللفـظ لا بخصـوص السبب، فالآية قد تنزل بسبب من الأسباب ثم تصبح عامة في كل ما كان نظير ذلك السبب.

ومن مواطن الالتفات كذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَ اسْتَوَى إِلَى الْسَمَاءِ وَهِـيَ دُخَـانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. [فصلت: الآية-11-]

فموضع الالتفات هو في قوله سبحانه وتعالى: "طائعين" بلفظ الجمع، وكان المتوقع أن يأتي السياق بصيغة المثنى نظرا إلى أن الخطاب كان موجها للسماء والأرض، وذلـك فـي قولـه تعالى "ائتيا ... قالتا"، ونلمس التفاتا آخر في الآية الكريمة وهو أن الجمـع فيهـا أتـى علـى صيغة جمع المذكر السالم، ولم يأت بصيغة جمع المؤنث، فلم يقل: طائعـات، فتعـدّدت آراء المفسرين في تحوّل الأسلوب من المثنى إلى الجمع ومن جمع المؤنث إلى جمع المذكر.

[1]- ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص100.

أثار الزمخشري السؤال بشقيه، فقال: «فإن قلت: هلّا قيل: طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى لأنهما سماوات و أرضون؟ قلت: لما جُعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره، قيل: طائعين في موضع طائعات»[1].

فتنزيل السماء والأرض في الآية الكريمة منزلة العقلاء في توجيه الأمر إليهما، ووصفهما بالاستجابة والخضوع والطاعة، وذلك من خلال صيغة جمع المذكر السالم (طائعين)عدولا عن صيغة جمع المؤنث (طائعات) المناسبة لغير العاقل، أيضا إلى جانب الجمع العاقل (المؤنث السالم).

وهذا ما ذهب إليه البيضاوي، إذ يقول بعد ذكره للآية العظيمة (... منقادين بالذات، والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثيرهما بالذات عنها، وتمثيلهما بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله "كن فيكون"، وما قيل من أنه تعالى خاطبهما وأقدرهما على الجواب إنما يُتصوّر على الوجه الأول والأخير، وإنما قال طائعين على المعنى باعتبار كونهما مخاطبتين كقوله "ساجدين"»[2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص371،372.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج24، ص221،222.

والرأي ذاته نجده عند البغوي، إذ يقول: «قال تعالى "قالتا أتينا طائعين"ولم يقل"طائعتين"، لأنه ذهب به إلى السموات والأرض ومن فيهن، مجازه: أتينا بما فينا طائعين، فلما وصفهما بالقول أجراهما في الجمع مجرى من يعقل»[1].

ولم يزد غيرهم من المفسرين على ما تقدّم ذكره[2].

ومن موطن العدول بين التثنية والجمع كذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ...﴾. [الحجرات: الآية 9].

موضع الالتفات في هذا السياق الكريم هو في قوله تعالى "اقتتلوا" بصيغة الجمع، بعد أن كان الكلام بصيغة المثنى في قوله تعالى "طائفتان" وكان من المتوقع أن يقال "اقتتلتا" لكنه انتقل إلى الجمع، وذلك لأسباب ذكرها المفسرون، من بينهم الزمخشري إذ يقول: «فإن قلت: ما وجه قوله: "اقتتلوا والقياس اقتتلنا"، كما قرأ ابن أبي عبلة، و"اقتتلا" كما قرأ عبيد بن عمير

[1]– البغوي، معالم التنزيل، المجلد 7، ص166.

[2]– ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص.1653، وأبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص5.

على تأويل الرهطين أو النفرين؟ قلت: هو مما حصل على المعنى دون اللّفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس»[1].

الطائفة في نظر الزمخشري تحمل معنى الواحد والجمع أي القوم والناس، وهو جمع حُمل على المعنى دون اللّفظ.

وهذا ما ذكره القرطبي أيضا في قوله: «والطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين، فهو ممّا حُمل على المعنى دون اللّفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس»[2]. ولم يضف أي من أبي السعود[3] والبيضاوي[4] على ما تقدّم ذكره.

أمّا الشعراوي فقد توسّع في شرح هذه الآية الكريمة، وبيّن الحكمة من العدول من المثنى إلى الجمع، ثم العودة إلى المثنى. وأبرز من خلال هذين التحولين دواعي الصلح والاقتتال، فالطائفة كلفظ يعبّر عن الواحد، وهو رئيس تلك الطائفة، لكن أثناء القتال يتطلب الأمر حضور أفراد الطائفتين، أما في حالة الصلح فانتقل السياق إلى المثنى، فقال تعالى:"فأصلحوا

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص571.

[2]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص375.

[3]– ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص120.

[4]– ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج26، ص306.

بينهما ..." لكونه ليس بالضرورة أن يحضره جميع أفراد الطائفة، بل ينوب عنهم شخص واحد يعقد الصلح[1]

ونلاحظ أن هناك اتفاقا بين جلّ المفسرين في شرحهم لهذه الآية.

أضف إلى هذا، قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾. [التحريم: الآية 4].

موضع الالتفات في هذا السياق الكريم، هو قوله تعالى "قلوبكما" بصيغة الجمع (قلب/قلوب). والمعروف أن لكل إنسان قلبا واحدا، وكان السياق في البداية يعبّر عن المثنى "تتوبا"، لذا كان من المتوقع أن يقال "قلباكما"لكنه تحوّل من المثنى إلى الجمع، لأنه من عادة العرب في كلامهم أنّهم إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما لأنه أمكن وأخف.

فنقل الرازي كلام الفرّاء حول المراد بالجمع في قوله تعالى (قلوبكما) فيقول: «قال الفرّاء: إنّما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنان اثنان في الإنسان كاليدين والرجلين والعينين، فلما جرى أكثره على ذلك ذهب بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب الاثنين»[2].

---

[1]– الشعراوي، تفسير الشعراوي، ص14453.

[2]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج30، ص44.

وقال القرطبي: «وقال: "فقد صغت قلوبكما" ولم يقل: فقد صغى قلباكما، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما، لأنه لا يشكل ... وقيل: كل ما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به، لأنه أمكن وأخف»[1].

وعلى هذا جاء في الآية الكريمة خطاب المثنى بصيغة الجمع.

المبحث الثالث:الالتفات من الجمع:

أ:إلى المفرد:

هو قسم آخر من أقسام الالتفات، يتمثل في الانتقال من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد في الصفات والأسماء، إذ نجد الكلام تارة يتحول من الصفة بلفظ الجمع إلى الاسم بلفظ المفرد، وتارة نجد العكس.

ومن أمثلة هذا الأسلوب قوله عزّ وجلّ: ﴿وَبَشِّرْ الَذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الْصَالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كَلَمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمْرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَذِي رَزَقَنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتَوْا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. [البقرة: الآية 25].

[1] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج21، ص84.

موضع الالتفات في هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى: "أزواج مطهّرة"، وكان المتوقع حسب السياق أن تأتي الصفة بصيغة الجمع تبعا للموصوف، أي أن يقال: "أزواج مطهرة"، لكنه عدل إلى المفرد لأسباب اختلفت عند المفسرين. فيرى الزمخشري أن (مطهرة ومطهرات) لغتان فصيحتان، والعلة من قول مطهرة، مكان طاهرة كونها الأفخم والأعظم في الطهارة، لأن كلمة "مطهرة" فخامة لصفتهن ليست في "طاهرة"، وهي الإشعار بأن مطهرا طهرهن وليس ذلك إلّا الله تعالى فيقول: «فإن قلت: فهلّا جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ قلت: هما لغتان فصيحتان، يقال: النساء فعلن، وهن فاعلات وفواعل، والنساء فعلت، وهي فاعلة ... والمعنى وجماعة أزواج مطهّرة، وقرأ زيد بن علي: "مطهرات" وقرأ عبيد بن عمير: "مطهرة" بمعنى متطهّرة، وفي كلام بعض العرب : ما أحوجني إلى بيت الله، فأطهر به أطهرة، أي فأتطهر به تطهرة، فإن قلت: هلّا قيل طاهرة؟ قلت: في: "مطهرة" فخامة لصفتهن ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهرا طهرهن، وليس ذلك إلّا الله عزّ وجل المريد بعباده الصالحين أن يخوّلهم كل مزية فيما أعدّ لهم»[1].

أمّا مجمد الطاهر ابن عاشور اعتبر هذا العدول من سمات العرب، إذ تنتقل من الجمع والمثنى لثقلهما وباعتبارهما فرعين إلى المفرد لكونه الأصل والأخف، فيقول: «وقوله: "مطهرة" هو بزنة الإفراد، وكان الظاهر أن يقال: مطهرات كما قرئ بذلك ولكن العرب تعدل

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج1، ص233،234.

عن الجمع مع التأنيث كثيرا لثقلهما لأن التأنيث خلاف المألوف والجمع كذلك، فإذا اجتمعا تفادوا عن الجمع بالإفراد، وهو كثير شائع في كلامهم لا يحتاج للاستشهاد»[1].

ولم يزد البيضاوي ولا الرازي ولا أبو السعود عن ما قاله الزمخشري[2].

صور الالتفات متعددة منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَسُولُ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَبِيينَ وَالْصِدِيقِينَ وَالْشُهَدَاءِ وَالْصَالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾. [النساء: الآية 69]. عدول من الجمع إلى المفرد في قوله سبحانه "رفيقا" بصيغة المفرد، وكان السياق المتوقع أن يأتي بصيغة الجمع: رفقاء أو رفاقا، وذلك تماشيا مع ما سبق، وكان للمفسرين أوجه مختلفة في شرح هذا، فالطبري ممن قالوا أن: «الرفيق في لفظ واحد بمعنى الجمع»[3].

وجوّز الزمخشري فيه أن يكون اللفظ مفردا بيّن به الجنس، إذ قال: «والرفيق: كالصديق والخليط في استواء الواحد والجمع فيه، ويجوز أن يكون مفردا بين به الجنس في باب التمييز»[4].

---

[1]– محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص357.

[2]– ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص71، والرازي، مفاتيح الغيب، ج2، ص142، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج1، ص70.

[3]– الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج2، ص502.

[4]– الزمخشري، الكشاف، ج2، ص104.

نجد الرازي قد نقل أقوال بعض العلماء دون أن يقدم رأيا خاصا به، فيقول: «قال الواحدي : إنما وحد الرفيق وهو صفة لجمع الرفيق والرسول والبريد تذهب به العرب إلى الواحد وإلى الجمع، قال تعالى "إنّا رسول رب العالمين" ولا يجوز أن يقال : حسن أولئك رجلا، وبالجملة فهذا إنما يجوز في الاسم الذي يكون صفة، أمّا إذا كان اسما مصرحا مثل: رجل وامرأة فلم يجز. وجوّز الزجاج ذلك في الاسم أيضا وزعم أنه مذهب سيبويه، وقيل: معنى قوله (وحسن أولئك رفيقا) أي حسن كل واحد منهم رفيقا، كما قال:﴿ثُمَ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.[الحج: الآية 05]»[1] .

نفهم من هذا القول أنّ سبب إفراد كلمة "الرفيق" باعتبارها صفة واسما في الوقت نفسه، ولا يجوز هذا في الاسم المصرّح.

وذهب البيضاوي إلى أنّ الآية تحمل معنى التعجّب، يقول: «يقول تعالى: "وحسن أولئك رفيقا" في معنى التعجب، و "رفيقا" نصب على التمييز أو الحال، ولم يجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق، أو لأنه أريد وحسن كل واحد منهم رفيقا »[2].

[1]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج10، ص180.

[2]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج5، ص369.

ولم يضف باقي المفسرين عمّا تقدّم ذكره[1].

ومن مواطن الالتفات أيضا قوله عزّ وجلّ ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ۞ قَالَ أَنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِيَّ فَلَا تَفْضَحُونِ﴾. [الحجر: الآيات 67 – 68].

الالتفات في هذه الآية الكريمة هو في قوله تعالى: "ضيفيّ" بصيغة المفرد، وكان من المتوقع أن يقال: ضيوفي بصيغة الجمع وذلك تماشيا مع قوله:"هؤلاء" وعلّل المفسرون هذه الصورة، قائلين إنّ وقوع اللفظ على المفرد لأنه مصدر، فلو وُصف بالمثنى أو الجمع خالف المألوف. إذ يقول أبو السعود: «الضيف حيث كان مصدرا في الأصل أطلق على الواحد والمتعدّد والمذكر والمؤنث، وإطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام، لكونهم في زيّ الضيف، والتأكيد ليس لإنكارهم بذلك، بل لتحقيق اتصافهم به وإظهار اعتنائه بشأنهم...»[2].

[1]– ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج2، ص199، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص450.

[2]– المرجع نفسه ، ج5، ص85.

والشيء نفسه عند الشوكاني، إذ يقول: «وحد الضيف لأنه مصدر كما تقدم، والمراد أضيافي، وسماهم ضيفا لأنه رآهم على هيئة الأضياف، وقومه رأوهم مردّ إحسان الوجوه، فلذلك طمعوا فيه»[1].

و من العدول عن الجمع إلى المفرد كذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ...﴾. [الحج: الآية 05].

حيث وردت لفظة الحال "طفلا" بصيغة المفرد، وكان المتوقع أن يقال "أطفالا" ليلاءم مع ضمير الجمع العائد على المخاطبين في "نخرجكم"، وقد تعدّدت آراء المفسرين في تبيان علة هذا التحول إذ يرى الزمخشري أن الغرض هو الدلالة على الجنس، ويحتمل أن يكون المعنى هو (نخرج كل واحد منكم طفلا)[2].

أضاف البيضاوي على الزمخشري احتمال أن تكون لفظة "الطفل" مصدرا في الأصل، فيقول: «وطفلا حال أجرت على تأويل كل واحد، أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر»[3].

---

[1]– الشوكاني، فتح القدير، ج14، ص766.

[2]– ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج4، ص177،178.

[3]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج17، ص439.

اللّافت للنظر أن الزمخشري والبيضاوي وغيرهما[1] لم يتوسعوا في الكلام والتعليق على هذه الآية، ونجد أن ما ذكر في أقوالهم، ذكر في أقوال غيرهم من المفسرين، لذا لا داعي لعرضها.

أمّا حسن طبل فقد لاحظ أن آراء المفسرين التي سبق ذكرها، ما هي إلّا تبريرات لغوية للظاهرة بعيدة كل البعد عن تبيان دلالتها ودورها في السياق، لذا استشهد بقول ابن جني الذي نحا منحى آخر في تفسير هذه الآية، يختلف عمّا سبق، فيقول: «... فحسن لفظ الواحد هنا لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره، فلاق به ذكر الواحد لذلك لقلته عن الجماعة ... وهذا ممّا إذا سئل الناس عنه قالوا : وضع الواحد موضع الجماعة اتساعا في اللّغة، وأنسوا حفظ المعنى لتقوى دلالته عليه، وتنضم بالشبه به»[2].

المفرد هنا أفاد التصغير لشأن الإنسان وتحقير لأمره وقلته.

إضافة إلى هذه الآية نجد ثلاث آيات أخرى قد وقع فيها لفظ الطفل، فتارة ورد جمعا وذلك في قوله تعالى: ﴿وإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾. [النور: الآية 59].

[1]– ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص.94، وأبو حيان، البحر المحيط، ج6، ص327،328.

[2] – حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغية القرآنية، ص93.

وتارة أخرى نكرة كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَ مِنْ عَلْقَةٍ ثُمَ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَ لِتَبْلُغُوا أَشُدَكُمْ ...﴾. [غافر: الآية 67].

أما في الموطن الرابع فقد بسّط العلماء الكلام عنه وفسروه عكس الآيات الثلاث الأخرى، أي لم يعيدوا الكلام فيها، وهو قوله تعالى: ﴿... أَوْ الْطِفْلُ الَذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ الْنِسَاءِ ...﴾. [النور: الآية 31]. حيث جاء لفظ الطفل مفردا، وكان المتوقع حسب السياق أن يأتي بلفظ الجمع، فيقال: الأطفال، وحسب ما قاله المفسرون، فإنه أريد به الجنس، الدليل على أن المقصود منه الجمع هو ما بعده، أي "الذين لم يظهروا" بصيغة الجمع مما يدل على أنّ (الطفل)أريد به الجمع لا الإفراد.

يقول الزمخشري: «وضع الواحد موضع الجمع لأنه يفيد الجنس، ويبين ما بعده أن المراد به الجمع»[1].

وهذا ما قاله الرازي: «الطفل اسم للواحد لكنه وضع هاهنا موضع الجمع لأنه يفيد الجنس، ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع ونظيره قوله تعالى" ثم نخرجكم طفلا"»[2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص293.

[2]– الرازي، مفاتيح الغيب، ج23، ص210.

ولم يزد أي من أبي السعود والبيضاوي والشوكاني شيئا عما ذكره السابقون.[1]

ب:إلى المثنى:

من خلال بحثنا عن الأمثلة التي تندرج ضمن هذا النوع وجدنا أنها قليلة، من بينها قوله عزّ وجلّ:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.[الحجرات: الآية 10].

موضع الالتفات في هذا النص الكريم هو في قوله تعالى "أخويكم" بصيغة المثنى، وكان من المتوقع أن يقال "إخوتكم أو إخوانكم" بصيغة الجمع، ولم يكن هناك اتفاق بين المفسرين في شرح هذه الآية، إذ انقسموا إلى فرق منهم من يرى أنها من باب الالتفات، ومنهم من لا يرى فيها ذلك، في حين رأى أنها من باب الانتقال من الاسم إلى الضمير.

فمن ذهبوا إلى أن في الآية التفاتا من الجمع إلى المثنى الزمخشري إذ يقول: «فإن قلت: فلم خصّ الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قلت: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين، وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج، وقرئ: بين إخوتكم وإخوانكم. والمعنى:

[1] – ينظر:أبو السعود،إرشاد العقل السليم ،ج6 ،ص،171 ،والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،ج18 ،ص494، و الشوكاني، فتح القدير، ص1009.

ليس المؤمنون إلّا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحصون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد، أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه»[1].

الزمخشري إذا خرّج الآية على أن أقل من يقع بينهم التخاصم اثنان، أمّا المصالحة فلزم أن تكون بين الأكثر، ثم ذكر أن هناك من قرأ "أخويكم" بـ "إخوتكم و إخوانكم".

وذهب أبو حيان مذهب الزمخشري[2].

وممن ذهب إلى أن الآية ليست من باب الالتفات الإمام الطبري، إذ قال إن: «معنى الأخوين في هذا الموضع: كل مقتتلين من أهل الإيمان»[3]

بمعنى أنها في الأصل مثنى، والمقصود منها الطائفتان المتقدمتان في الذكر قبل الآية، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. [الحجرات: الآية 9].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص573،574.

[2]– ينظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج9، ص508.

[3]– الطبري، جامع البيان عن تأويل آى القرآن، ج7، ص82.

وقال القرطبي بعد ذكره للآية: «أي: بين كل مسلمين تخاصما، وقيل: بين الأوس و الخزرج، على ما تقدم. وقال أبو علي: أراد بالأخوين الطائفتين، لأن لفظ التثنية يرد، والمراد به الكثرة»[1].

وهذا الرأي ذاته نجده عند الشوكاني، إذ يقول: « يعني: كل مسلمين تخاصما وتقاتلا، وتخصيص الاثنين بالذكر ولإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى ...»[2]. ثم نقل كلام أبو علي.

أما من رأى أنّ في الآية التفاتا لكنه يكمن في التحول من الاسم إلى الضمير لغرض المبالغة في وجوب الإصلاح والتخصيص والتقرير، فهو أبو السعود، إذ يقول: «ووضع المظهر مقام المضمر مضافا إلى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الإصلاح والتخصيص عليه، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بالطريقة الأولوية لتضاعف الفتنة و الفساد فيه.وقيل المراد بالأخوين: الأوس والخزرج، وقرئ: بين إخوتكم وإخوانكم»[3].

---

[1]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص384.

[2]– الشوكاني، فتح القدير، ج26، ص1392.

[3]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج8، ص120،121.

كما كان للبيضاوي الرأي ذاته، إذ يقول: «ووضع الظاهر موضع الضمير مضافا إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتخصيص...»[1].

وعلى هذا نرى أن ما ذهبا إليه الفريق الأول أولى بالإتباع، وذلك نظرا إلى الآية التي سبقت الآية التي بصدد دراستها، كما أن أقل ما يقع بينهم الخصام اثنان، إضافة إلى القراءات التي شهدتها الآية، والله أعلم.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿الَذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الْرَحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فَطُورٍ ۝ ثُمَ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيْرٌ﴾. [الملك: الآية 3 –4].

جاء الالتفات في قوله سبحانه "كرتين" بلفظ المثنى، وذكر المفسرين أن المقصود منها الجمع ومعنى التثنية هنا التكثير والتكرير.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرتين اثنتين؟ قلت:معنى التثنية التكرير بكثرة، كقولك: لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض ... فإن قلت: فما معنى ثم ارجع؟ قلت: أمره برجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع

[1]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج26، ص307.

بالرجعة الأولى وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها ويجم بصره، ثم يعاود ويعـــاود إلـــى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شيء من فطوره»[1].

الله سبحانه وتعالى يخبرنا في هذه الآية عن مدى عظمـــة خلـــق الســـماوات الســـبع، دون تفاوت أو شقوق فيما بينها، فأمر بتكرير البصر فيها وتصفحها، وإن كرّر هذا الأمر لن يرجع البصر برؤية الخلل، إنّما يرجع بالخسوء والحسور.

أما موقف القرطبي، فلم يكن واضحا في هذه الآية، فتارة نجده يخالف ما تقـــدم ويصـــرّح بأن التثنية هنا حقيقة، فيقول: «كرتين في موضع المصدر، لأن معناه رجعتين، أي: مرة بعـــد أخرى، وإنما أمر بالنظر مرتين، لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عليـــه مـــا لـــم ينظر إليه مرة أخرى. فأخبر تعالى أنّه – وإن نظر في السماء مرتين – لا يرى فيهـــا عيبـــا، بل يتحير بالنظر إليها»[2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج6، ص171.

[2]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج21، ص116.

تارة أخرى يصرّح بأن المقصود باللفظ التكثير، وذلك في قوله: «والمراد "كرتين" هاهنا التكثير، والدليل على ذلك: "ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير" وذلك دليل على كثرة النظر»[1].

والأهم من كلام القرطبي، أنه حمّل الآية ما اتفق عليه جميع المفسرين، وقد أشار كلا من أبي السعود[2] والنسفي[3] والبيضاوي[4] إلى المعنى ذاته، وهو أنّ لفظ التثنية في الآية أفاد التكثير و التكرير لذا لا داعي لإعادتها.

[1]– المرجع السابق، ص117.

[2]– أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج9، ص4.

[3]– النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ص1243.

[4] ـ البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج29، ص425.

أنواع أخرى من فن

الالتفات

أنواع أخرى من «فن الالتفات»:

الالتفات ظاهرة بلاغية أصيلة واسعة الآفاق، لا يمكن تقييدها ببعض الأنماط والشواهد، فهي تتضمن أساليب تعبيرية مختلفة الأغراض، انطلاقا من هذه الفكرة حاولنا تبيان البعض منها، وذلك بالاعتماد على تفاسير القرآن الكريم وكتب البلاغة، وسنتطرق إليها على النحو التالي:

1: الالتفات بين الإضمار والإظهار:

الأصل في الكلام أن يكون المتحدث عنه ظاهرا، ومن باب الاختصار أنّه إذا ذكر مرة ثانية يذكر مضمرا، لكن في بعض الأحيان يعكس الأمر فيأتي الشيء في البداية مضمرا ثم يعرف في باقي الكلام ،وهذا يحمل فوائد تختلف من سياق إلى آخر، وقد وقع هذا النوع كثيرا في القرآن الكريم، نذكر على سبيل المثال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا۝ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾.[الفرقان: الآيات 7 – 8].

في الآيتين الكريمتين التفات من المضمر في قوله تعالى: " وقالوا " في الآية الأولى إلى الإظهار في قوله تعالى: "وقال الظالمون" في الآية الثانية، والمقصود بهما هؤلاء الضالون الذين يفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم الكذب والشك في رسالته واتّهامه

بأنه مسحور، وقد ذكر الزمخشري أن في ذلك تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا، فيقول: «وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا»[1].

وهذا الرأي ذاته نجده عند كل من البيضاوي[2] وأبي السعود[3].

يضيف حسن طبل أنّ وراء العدول عن المضمر إلى الاسم الظاهر إبرازا لوجه الاختلاف بين الافتراء على رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم في المقولة الأولى التي مردّها الجهل والافتراء على شخصيته صلى الله عليه وسلم بالسحر في مفهوم الثانية التي مردّها الظلم، وما يدعم هذا هو ذكر لفظ الرسول معرفا في المقولة الأولى "وقالوا ما لهذا الرسول"، ثم تنكيره الذي يوحي إلى التجاهل في المقولة الثانية "رجلا"، ثم الانتقال من الاستفهام الذي ورد في الآية الأولى إلى الإخبار بأسلوب القصر في الآية الثانية (إن تتبعون إلّا رجلا)، وهذا كله يؤكد على بشاعة الظلم، وتجاوز الحد فيما قالوه، لكونه إضلالا خارجا عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى المسحور[4].

---

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج4، ص334,

[2]–ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج18، ص514.

[3]–ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج6، ص204.

[4]–ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص122.

من صور هذا الالتفات أيضا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِ لِمَا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.[سبأ: الآية 43].

عدول من الإضمار في قوله سبحانه (عليهم .. قالوا .. وقالوا)، إلى الإظهار في قوله تعالى (وقال الذين كفروا)، ونكتة هذا العدول –كما ذكر المفسرون– هي الدلالة على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، و تعجيب من أمرهم بليغ، وكأنه قال (وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النيّر قبل أن يذوقوه: (إن هذا إلّا سحر مبين)، وتكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة إشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ذلك من مبادهة[1].

من أمثلة هذا الالتفات أيضا قوله عزّ و جلّ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يُأْتُونَنَا لَكِنْ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينْ﴾. [مريم: الآية 38].

بدأت الآية الكريمة بالتعبير عن هؤلاء الظالمين بضمير الغيبة "أسمع بهم" ثم انتقل عن ذلك إلى التعبير عنهم بالاسم الظاهر "لكن الظالمون". يقول الزمخشري: «أوقع الظاهر،

[1]–ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج5، ص.129، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج22، ص110، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص138.

أعني: الظالمين موقع الضمير، إشعارا بأن ظلم أشد من ظلمهم، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين يجدي عليهم ويسعدهم، والمراد بالضلال المبين: إغفال النظر والاستماع»[1].

الزمخشري لاحظ أن صفة الظلم التي اشتق منها الاسم الظاهر هي سّر التحول عن ضمير الغيبة إليه، وذلك للدلالة على أن لا ظلم أشد من ظلمهم.

في حين أضاف حسن طبل فكرة أخرى، وهي أن الإضمار قد ورد في وصف حال هؤلاء الظالمين يوم القيامة، وأنّ الإظهار قد ورد في الإخبار عن حالهم في الدنيا[2].

2: بين تذكير الضمير وتأنيثه:

هذه صورة أخرى من صور الالتفات، تتمثل في التحول عن تذكير الضمير إلى تأنيثه أو العكس، ولتحقيقها يجب أن تخضع لشروط وضّحها حسن طبل في عنصرين هما:

1- أنها لا تتحقق إلّا إذا كان مرجع الضميرين – المذكر والمؤنث – واحد، إذ الالتفات لا يأتي إلّا إذا اتحد المعنى أو الجهة بين الملتفت عنه والملتفت إليه.

[1]- المرجع السابق، ج4، ص21.

[2]- حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية،ص127.

2 – أنها لا تتحقق إلّا إذا كان مرجع الضميرين مما يجوز تذكيره وتأنيثه، أي أن يكون تأنيثه مجازيا لا حقيقيا، إذ إن عود ضمير التذكير على المؤنث الحقيقي مما لا يقرّه نظام اللغة[1].

وفي ضوء هذا التحديد نذكر بعض المواطن القرآنية لهذه الصورة، من بينها قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: الآية 49].

جاء الضمير العائد على النعمة في "إنّما أتيته" مذكرا ثم عدل عن ذلك إلى تأنيثه في "بل هي فتنة"، وقد فسّر الزمخشري هذا العدول بقوله: «فإن قلت: لم ذكر الضمير في "أتيته" وهو للنعمة؟ قلت: ذهابا به إلى المعنى، لأن قوله "نعمة" منّا شيئا ما النعم وقسما منها ... فإن قلت: كيف ذكر الضمير ثم أنثه؟ قلت: حملا على المعنى أوّلا، وعلى اللفظ آخر، ولأن الخبر لما كان مؤنثا أعنى "فتنة": ساغ تأنيث المبتدأ لأجله، لأنه في معناه»[2].

فتذكير الضمير هو حمل على معنى النعمة، أما تأنيثه بعد ذلك فهو حمل على لفظ النعمة، ولأن الخبر لما كان مؤنثا "فتنة" ساغ تأنيث المبتدأ لأجله.

[1] – المرجع السابق، ص127.

[2]–الزمخشري، الكشاف، ج5، ص311، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص258،259،ينظر: البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج24، ص192.

وبناء على ذلك فقد أضاف حسن طبل ملاحظة أخرى وهي أن ضمير التذكير قد ورد محكيا على لسان الإنسان للإشعار بمدى جحود الإنسان للنعم وغفلته عن كونها من الله تعالى، أمّا ضمير التأنيث فقد ورد في إخباره سبحانه عن حقيقة المراد لنعمة" بل هي فتنة"، والمراد منها لفت الإنسان إلى الحقيقة التي غفل عنها، فهي نعمة من الخالق عزّ وجلّ، فإما أن يعلو بسببها إلى قمة الشكر، وإما ينحدر في الكفر والنكران[1].

ومن مواطن الالتفات عن تأنيث الضمير إلى تذكيره قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللهُ لِلنَاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمْ﴾. [فاطر: الآية 2).

ففي هذا السياق الكريم التفات عن ضمير التأنيث في قوله "فلا ممسك لها" إلى ضمير التذكير في قوله تعالى "فلا مرسل له".

لقد تساءل المفسرون عن مرجع ضمير التذكير، وحدّدوا أنّه مطلق يشمل كل ما يمسكه عزّ وجلّ من غضبه أو رحمته، يقول البيضاوي: «"فلا ممسك لها" يحبسها "وما يمسك فلا مرسل

[1]-ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص128،129.

له" يطلقه، واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول مفسّر بالرحمة، والثاني مطلق بتناولها والغضب وفي ذلك إشعار بأن رحمته سبقت غضبه»[1].

ومن مواضع الالتفات قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾. [عيسى: الآيات 11 -12].

ذكر المفسرون آراء مختلفة في تبيان المراد بضميري التأنيث والتذكير في "إنّها ... ذكره". فالزمخشري ذهب إلى أن الضمير ذُكّر لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ[2].

أما البيضاوي فاعتبر الضميرين للقرآن، أو العتاب المذكور وتأنيث الأول لتأنيث خبره[3].

أما الرأي الثالث فتمثل في أن أولهما إنما أنّث لأن المراد به آيات القرآن، يقول الكرماني (ت: 505 ه) في تفسير وجه المخالفة بين تأنيث الضمير الأول في هاتين الآيتين وتذكيره في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾. [المدثّر: الآية 54 – 55]. «لأن تقدير

[1]– البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج22، ص115،وينظر: الزمخشري، الكشاف، ج5، ص138، وأبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص286.

[2]–ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج6، ص315.

[3]– ينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل و أسرار التأويل، ج30، ص499.

الآية في هذه السورة: إن القرآن تذكرة، وفي عبس: إن آيات القرآن تـذكرة، وقيـل: حمـل التذكرة على التذكير، لأنها بمعناه»[1].

3: الالتفات في مجال الصيغ:

يتحقق هذا النوع من الالتفات في الاختلاف بين صيغتين في تركيـب واحـد مـن مـادة معجمية واحدة فمثلا: المخالفة بين صيغ النوع الواحد من الأفعال (ماض، مضارع، أمـر)، أو بين صيغ الأسماء، أو بين صيغتي الاسم والفعل، ولو لا هذه المخالفة لافتقد السياق لأغراضـه البلاغية، يقول صاحب المثل السائر: «اعلم أيّها المتوشّح لمعرفة البيان أن العدول من صـيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلّا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخـاه فـي كلامه إلّا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما، وفتّش عـن دفائنهـا، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيـان، وأدقهـا فهمـا، وأغمضـها طريقا»[2]

[1]– محمود بن جمزة الكرماني، أسرار التكرار في القرآن (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، دار الفضيلة، د.ط، د.س، ص242.

[2]– ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ج2، ص179.

3 -1- بين صيغتي الفعل:

أ – نزّل– أنزل: ذلك في قوله تعالى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ الْتَوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. [آل عمران: الآية 3].

أتى السياق الكريم في البداية على صيغة الفعل الماضية "فعّل" بالشدة في وصف نزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تحول إلى صيغة ماضية أخرى "أفعل" في وصف نزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السلام، فذهب أكثر المفسرين إلى أن صيغة "فعّل" للمبالغة والتكثير، والقرآن الكريم إنّما نزل مُنجّما، أمّا التوراة والإنجيل فقد نزلا جملة، فعبّر عن القرآن بصيغة "فعّل" لكثرة تنزيلاته، وعبّر عن التوراة والإنجيل بصيغة "أفعل" الخالية من معنى المبالغة والتكثير[1].

في حين إن حسن طبل قد رفض ما ذهب إليه المفسرون، واستصعب التسليم بالربط بين صيغة التنزيل والكيفية التي نزل بها القرآن الكريم دون غيره من الكتب السماوية، مستشهدا على ذلك بآيات قرآنية من بينها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لَنُثْبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ و رَتَلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. [الفرقان : الآية 32]. فلو كان النزول جملة

[1]– ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص526، وأبو السعود،إرشاد العقل السليم، ج2، ص4، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج3، ص243.

من خصائص الإنزال لا التنزيل لقيل: "أنزل عليه القرآن جملة". وقوله عزّ وجـلّ: ﴿وَقُرْآنًـا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾. [الإسراء : الآية 106]. فلو كان الأمـر متعلقا بنزول القرآن الكريم منجما أو مفرقا لما ساغ عطف "نزلناه" على "فرقناه". ثـم أشـار بناء على هذه الآية إلى أن صيغة "نزّل" حتى وهي تفيد معنى المبالغة، فإن ذلك لا يدل فيهـا على تنجيم النزول أو كثرة التنزيلات، بل تأكيد معنى النزول أو المبالغة في إثبـات وقوعـه، أمّا صيغة "أنزل" على مجرد النزول دون مبالغة أو تأكيد في إثباته[1].

ب – اسطاع– استطاع: وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْـتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾. [الكهف: الآية 97].

فهنا وصف للسد الذي أقامه ذو القرنين لقوم استغاثوا به من ظلم (يأجوج ومأجوج) ذلـك السد الذي كان على قدر هائل من العلو بحيث هؤلاء الظالمون عن تصوره ولصلابته عجـزوا أن يفتحوا فيه ثغرة ينفذون من خلالها، وقد قال المفسرون فـي توضـيح تلـك المخالفـة إن الصيغتين هما بمعنى واحد، وحذف التاء في الأولى إنما للتخفيف، لأن التاء قريبـة المخـرج من الطاء[2].

[1]– ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص57،58.

[2]– ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج3، ص616، وأبو السعود، الكشاف، ج5، ص246.

في حين يرى حسن طبل أن الصيغتين وإن تواردتا على معنى واحد فإن لكل منهما إيحاءاتها الخاصة في أدائه، وأن في صيغة الاستطاعة إثباتا على الدعوة إلى بذل الجهد، أما صيغة (اسطاع) فتدل على العجز عن تحقيق الأمر الذي ما إن تتصوره النفس حتى تدرك أن مساريها إليه فوق الوسع[1].

3- 2 – بين صيغتي الاسم:

أ – ضلال– ضلالة: ذلك في قوله عزّ وجلّ في الإخبار عن قوم نوح وتكذيبهم له عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِي رَسُولٌ مِنْ رَبِ الْعَالَمِينَ ﴾. [الأعراف: الآيات 60– 61].

لقد كان مقتضى السياق أن ينفي نوح عليه السلام تهمة الضلال عن نفسه بصيغة المصدر (ضلال)إلى صيغة اسم المرة (ضلالة) مبالغة في النفي، فالمصدر يدل على القليل والكثير، أمّا اسم المرة فلا يدل إلّا على الفعلة الواحدة، ونفي الأدنى أو الأقل أبلغ من نفي الأكثر[2].

[1]– ينظر: حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص64،65.

[2]– ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج2، ص454، وأبو حيان، البحر المحيط، ج4، ص324، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج3، ص235.

ب – الحياة– الحيوان: وذلك في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الْدُنْيَا إِلَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَ الدَارُ الْآخِرَةُ لَهِيَّ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. [العنكبوت: الآية 64].

فالحياة والحيوان بمعنى واحد، إن كلاهما مصدر الفعل (حي)، وفي بناء الثانية زيادة معنى ليس في بناء الأولى، وهي ما في بناء "فعلان" من معنى الحركة والاضطراب، كالنزوان والنغصان و اللّهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أنّ الموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة[1].

3-3 بين الاسم والفعل:

لصيغتي الاسم والفعل خصائص تتميز كل واحدة بها عن الأخرى في أداء المعنى، إذ يحدّد الجرجاني (ت: 474 ه) هذا الفرق، فيقول: «إن موضع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء»[2].

[1]– ينظر: المرجع السابق، ج4، ص560، وأبي السعود، إرشاد العقل السليم، ج7، ص47.

[2]– الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.س، ص174.

وفي ظلّ هذا القول، نقف عند قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾. [ص: الآيات 18 –19].

ففي الآية الأولى جاء الحال بصيغة المضارع "يسبّحن"، ثم تحول في الآية الثانية إلى صيغة الاسم "محشورة"، يقول الزمخشري في دلالة هذا العدول: «فإن قلت: هل من فرق بين "يسبّحن" و"مسبّحات"؟ قلت: نعم، وما اختير "يسبّحن" على "مسبّحات" إلّا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح...، وقوله "محشورة" في مقابلة "يسبّ–حن" إلّا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء، جيء به اسما لا فعلا، وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن –على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئا بعد شيء، والحاشر هو الله عزّ وجل– لكان خلفا، لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة»[1].

ففي إيثار صيغة الفعل دلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال، وكأن الحاضر لتلك الحال يسمعها تسبح، أمّا إيثار صيغة الاسم فكان للدلالة على حشر الطير.

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص250، وينظر: أبو السعود، الكشاف، ج7، ص219، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج23، ص168،169.

في حين يضيف حسن طبل على ما قدّمه الزمخشري، أن الآيتين مسوقتان لإبراز نعمتين خصّ الله بهما نبيه داود عليه السلام، والتعبير بهما بصيغتين مختلفتين دلالة على عظمتهما وخصوصيتهما به، فيقول: «ومن ثم كان لإيثار الفعل الدال على التجدّد في "يسبحن" دلالته على أن التسبيح المقصود من الجبال ليس هو ذلك التسبيح الدائم، بل هو تسبيح خاص يتجدّد بتجدّد التسبيح من داود، وتلك الدلالة تدعمها – فيما نحس– دلالة الظرف (معه) وتقديمه على الفعل في الآية الأولى، كذلك فأن من شأن الطير الحركة وسرعة التنقل من مكان إلى مكان، ومن هنا يكون لإيثار التعبير عن حشرها بالاسم دون الفعل دلالته على أنها حين تحشر وتتجمع لتجاوب تسبيح داود تكاد تفارق طباعها، فتثبت في مكان حشرها خاشعة لا تكاد تريم»[1].

فالفعل الدال على التجدّد "يسبحن" المقصود به التسبيح الخاص الذي يتجدّد بتجدّد التسبيح من داود، أمّا إيثار التعبير عن حشر الطير بالاسم، فدلالة على أنها حين تحشر وتتجمع لتجاوب تسبيح داود تكاد تفارق طباعها، فتثبت في مكانها خاشعة.

وقوله تعالى أيضا: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىَ الْطَيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾. [الملك : الآية 19].

[1]– حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418ه– 1998م، ط1،ص 169 .

يقول الزمخشري في تبيان السبب في إيراد الاسم "صافات" ثم الفعل "يقبضن": «فإن قلت: لم قيل: "ويقبضن"، ولم يقل: قابضات ؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صفّ الأجنحة، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأمّا القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرّك، فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنّهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح »[1].

فالأصل في الطيران هو صف الأجنحة أي مدّ الأطراف وبسطها، أمّا القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحركّ.

4: الالتفات في المعجم:

يتمثل الالتفات في هذا المجال بين لفظين يشتركان في الدلالة الأساسية، ويستقل كل منهما عن الآخر في الدلالة الهامشية، وتتمثل قيمة المخالفة بينهما في ملائمة كل منهما بدلالة لسياق الكلام.

فمن مواطن هذا النوع، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمْ الْطُوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾. [العنكبوت: الآية 14].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج6، ص175.

حيث جاء تمييز المستثنى بلفظ "العام" لا بلفظ "السنة" الوارد في تمييز المستثنى منه، وكل منهما يدل على معنى الحول، فما هو سرّ المخالفة بينهما في الآية الكريمة إذن؟

يقول الزمخشري: «فإن قلت: فلم جاء المميز أوّلا بالسنة وثانيا بالعام؟ قلت: لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلّا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك»[1].

ويقول أبو حيان: «وغاير بين تمييز المستثنى منه وتمييز المستثنى، لأن التكرار في الكلام الواحد مجتنب في البلاغة، إلّا إذا كان لغرض من تفخيم، أو تهويل، أو تنويه...»[2].

الغرض إذا هو تفادي تكرار لفظة السنة، فهو من الأمور التي يجب اجتنابها في البلاغة.

في حين يرى حسن طبل أن هذا لا يكفي في تفسير تلك المخالفة، فاعتمد على الدلالة اللّغوية لكل من السنة التي تدل على الحول الذي يكون فيه الجدب أو الشدة، أما العام فيختص بما فيه من الخصب والرخاء. فالنكتة إذن من هذا هي إبراز للبون الشاسع بين مدة ابتلاء نوح عليه السلام بقومه (95 سنة)، ومدة رخائه بعد هلاكهم غرقا[3].

---

[1]– المرجع السابق،ج4، ص540.

[2]– أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص140.

[3]– ينظر: حسن طبل، فن الالتفات في البلاغة القرآنية، ص160.

كذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿زَيِّنَ لِلَذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الْدُنْيَا وَ يَسْخَرُونَ مِنْ الَذِينَ آمَنُوا وَالَذِينَ اتَقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. [البقرة: الآية212].

تبيّن هذه الآية الكريمة المؤمنين الذين قد يكونون في الدنيا هدفا لسخرية الكفار هم لا هؤلاء الكفار الأعلون يوم القيامة، وكان مقتضى السياق أن يقال: "الذين آمنوا فوقهم يوم القيامة".

يقول الزمخشري في بيان سرّ العدول عن لفظ الإيمان إلى لفظ التقوى: « فإن قلت: لم قال : "من الذين آمنوا"، ثم قال "والذين اتقوا"؟ قلت: ليريك أنه لا يسعد عنده إلّا المؤمن المتقي، وليكون بعثا للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك»[1].

ولعل أكثر ما قيل في بيان نكتة العدول في الآية الكريمة صوابا، هو ما ذكره أبو السعود في تفسيره، إذ يقول: «الذين اتقوا هم الذين آمنوا بعينهم وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم إلى جناب القدس شاغلة عنه»[2].

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج1، ص421.

[2] – ابو السعود,ارشاد العقل السليم, ج1,ص214

ومن ثم فإن العدول عن صفة الإيمان إلى صفة –التقوى في هذا السياق– إبراز للمفارقة بين تعالي الساخر بزينة الحياة الدنيا، وتعالي المسخور منه على تلك الزينة للانغماس في متاعها الزائل.

5: الالتفات في البناء النحوي:

تتحقّق صورة الالتفات في هذا المجال عند إعادة عنصر من عناصر البناء النحوي على نمط مخالف لما جاء به أولا، وذلك من أجل تحقيق معان لا تتأتى بدون هذه المخالفة، ومن أمثلة ذلك التحول في بناء الجملة عن نمط الفعلية إلى نمط الاسمية أو العكس، ومن تلك المواطن قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُهَا النَاسُ اتَقُوا رَبَكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ فَلَا تَغُرَنَكُمْ الْحَيَاةُ الْدُنْيَا وَلَا يَغُرَنَكُمْ بِاللهِ الْغُرُورُ﴾. [لقمان: الآية 33].

حيث جاء نفي جزاء الوالد عن ولده بصيغة الجملة الفعلية، ثم انتقل إلى الجملة الاسمية عند نفي جزاء الولد عن الوالد، يقول الزمخشري في نكتة هذا العدول: «فإن قلت: قوله: "ولا مولود هو جاز عن والده شيئا" وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه، قلت: الأمر كذلك، لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية، وقد انضم إلى ذلك قوله: "هو وقوله سبحانه مولود"، والسبب في مجيئه على هذا السنن : أنّ الخطاب للمؤمنين وعليتهم

قبض آباءهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم أطماعهم وأطماع النـــاس فـــيهم: أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم وأن يغنوا عنهم من الله شيئا، فلذلك جيء به علـــى الطريق الآكد»[1].

فالخطاب موجه للمؤمنين وعليتهم والجملة الاسمية هنا آكد من الفعلية.

ويضيف الآلوسي (ت 1270 ه) – إلى ما تقدم –رأيا آخر في تفسير تلك المخالفـــة فيقـــول: «إن العرب كانوا يدخرون الأولاد لنفعهم ودفعهم ودفع الأذى عنهم وكفاية ما يهمهـــم، ولعـــل أكثر الناس اليوم كذلك، فأريد حسم توهم نفعهم ودفعهم الأذى وكفاية المهم في حق آبائهم يـــوم القيامة، فأكدت الجملة المفيدة لنفي ذلك عنهم ...»[2]. فهذا العدول أفاد بـــالعموم تأكيـــد عـــدم الانتفاع بالذرية.

[1]– الزمخشري، الكشاف، ج5، ص24،وينظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج7، ص189.

[2]– الآلوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دس، ج21، ص107.

خاتمة

خاتمة:

في ختام هذا البحث، وبعد الاطّلاع على تفاسير القرآن الكريم، وتحليل آيات ممـــا وجـــدت فيه ظاهرة التحوّل والعدول من أسلوب إلى آخر، وهو ما عرفناه "**بالالتفات**"استخلصنا جملـــة من النتائج نوجزها في مايلي:

– اتفاق مؤلفي المعاجم على أنّ المعنى اللغوي للالتفـــات هـــو التحـــوّل أو الصـــرف، قابلـــه اختلاف في المعنى الاصطلاحي لهذه الظاهرة، ممّا أدّى إلى الاخـــتلاف فـــي أقســـامها عنـــد اللّغويين والمفسرين.

– اختلاف البلاغيين في تحديد موقع الالتفات في علم البلاغة، فبعضـــهم يعـــدّه مـــن علـــم المعاني، وآخر يراه من البيان، وثالث يحسبه من البديع، إلّا أنّ الأرجح أن يكـــون مـــن علـــم المعاني باعتباره قائما على المعنى كما رأينا.

– تعدّد التسميات لمصطلح الالتفات منها "تلوين الخطاب أو الكلام".

– كثرة مواضع الالتفات في القرآن الكريم، حيث له حضور في جميع أقسامه.

– أن أغراض الالتفات لم تكن موضع اتّفاق بين البلاغيّين والمفسّرين جميعهم، فكان للســـياق دور كبير في تحديدها.

– الالتفات كان معروفا عند القدماء، إلّا أنّه لم يعرف بهذا المصطلح، إنّما وُجد في ثنايا مصطلحات عديدة، كالانتقال والاعتراض.

– أن أقسام الالتفات لا تنحصر في الضمائر والأفعال والعدد فحسب، إنما تشمل الالتفات المعجمي والنحوي، وبين الإضمار والإظهار، وتثنية الضمير وتذكيره، وبين صيغ الأفعال وصيغ الأسماء.

– أن الالتفات من الفعل المضارع إلى اسم الفاعل أو المفعول أقل ورودا، إذ وقع كل منهما في موضع واحد.

– أن الالتفات من عناصر الإعجاز القرآني الأساسية، لما له من أسرار وما يتركه من أثر على السامع.

– اهتمام العلماء في مختلف العصور بظاهرة الالتفات.

– تأثر بعض المفسرين بغيرهم في تفسير ظاهرة الالتفات، فمثلا كثيرا ما نجد أبا حيان يوافق الزمخشري في ما يذهب إليه.

– إن أبا السعود في تفسيره (إرشاد العقل السليم) كان من المولعين ببيان مواضع الالتفات في القرآن الكريم واستنباط فوائده.

– أن البلاغيين لم يفصلوا القول في أقسام الالتفات كما فعل المفسرون.

– أن حسن طبل قد تفرّد بذكر بعض الأقسام التي لم ترد عند غيره، مؤلّفا كتابا خاصا يحوي جميع أنواع الالتفات.

– أن أسلوب الالتفات جد مهم لما يحدثه من أثر على السامع وما له من جمال فنيّ، ولا يسع أي بليغ إدراكه خاصة في القرآن الكريم.

وبعد:

فإننا نأمل أن نكون قد وفقنا فيما توصلنا إليه، وأن يكون عملنا هذا دعامة لمن أراد البحث في موضوع "**الالتفات ودلالته في القرآن الكريم**"، وأن ينتفع به ولو بالقليل.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم عن رواية ورش لقراءة الإمام نافع.

- البخاري (الإمام أبو عبد الله الجعفي ت 256 ه)،صحيح البخاري،المطبعة العامرة،القاهرة،1315ه.

1- التفاسير:

1- ابن عاشور (محمّد الطاهر)، تفسير التحرير والتنوير، دط، د سنة.

2- أبن كثير (701ه-774)، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط1، 1420ه- 2000م.

3- البغدادي (شهاب الدبن السيد محمود الألوسي ت 127ه)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، دط، دسنة.

4- البغوي (أبو محمد الحسين بن مسعود ت516ه)، معالم التنزيل دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، 1423ه 2002م.

5 – أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف الشهيد ت 745ه)،تفسير البحر المحيط، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1، 1413ه- 1993م.

6- الثعالبي(الإمام عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف أبو زيد المالكي م786ه- ت875)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، 1418ه- 1997م.

7 – الرازي (محمد فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمرم544- ت 604ه)، تفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، ط1، 1401ه- 1981م.

8- الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمرم 467ه- ت 538ه)، الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418ه-1998م

9- الشعراوي، تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم، دط، 3092ه- 1991م.

10- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد ت 1250ه)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تح: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط4، 1428ه- 2007م.

11- الصابوني (محمد علي)، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4، 1402ه-1981م

12 - الطبري (محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس الحرشاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1415ه- 1994م.

13- العمادي(أبو السعود محمد بن محمد ت915ه)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، دط، د سنة.

14- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ت671ه)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427ه-2006م.

15- الكرماني (محمود بن حمزة ت 505ه)، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، دط، د سنة.

16- النسفي(أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود ت701ه)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تح: سيّد زكريا، مكتبة نزار مصطفى الباز، دط، د سنة.

17- البيضاوي (القاضي أم الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشـــيرازي ت791ه)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد صبحي بن حسن حلاق والـــدكتور محمـــود أحمـــد الأطرش، دار الرشيد، دمشق بيروت، ط1، 1421ه- 2000م.

2- المعاجم

1 - ابن منظور(محمد بن مكرم ت 711ه)،لسان العرب،دار صادر،بيروت،ط1.

2 - الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (ت 170ه)، معجم العين، تح: عبـــد الله درويش، مطبعة الغاني بغداد، 1967م.

3 - الفيروز آبادي(ت 817ه)، القاموس المحيط، بيروت، 1983م.

3- الكتب:

1- ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين ت 637ه)،المثل السائر في أدب الكاتـــب والشـــاعر،تح: محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية،بيروت،دط، 1995م.

2 - ابن المعتز (أبـــو العبـــاس عبـــد الله ت399ه)،البـــديع،تح: مطرجي،مؤسســـة الكتـــب الثقافية،ط1، 1433ه- 2012م.

3- ابن وهب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب ت 372ه)، البرهان في وجوه البيان، تح: الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، 1967م.

4- أبو عبيدة(معمر بن المثنى ت 208ه)، مجازالقرآن،بيروت،ط1، 1970م.

5- الجرجاني (أبو بكرعبد القاهر بن عبد الرحمان ت471ه)،دلائل الإعجاز،تع: محمود محمد شاكر،مكتبة الخانجي،القاهرة، دط ، دسنة.

6- حسن طبل(م1418ه- ت1998م):

أ / أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1.

ب/ المعنى في البلاغة العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1.

7 - الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله م745- ت794ه)،البرهان في علوم القرآن، دار الحديث ،جامعة الأزهر،دط، 1427ه- 2006م.

8ـ السبكي (بهاء الدين ت773ه)،عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح،مطبعة عيسى البابي الحلبي،مصر، 1937م .

9- السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بنعلي ت 656ه)،مفتاح العلوم، دط ،دسنة.

10- السيوطي (جلال الدين ت911ه)،الإتقان في علوم القرآن،مؤسسة الرسالة،بيروت لبنان،ط1، 1429ه- 2008م.

11- طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1996.

12- عبد العزيز عتيق، علم المعاني- البيان- البديع، دار النهضة العربية، بيروت، دط، د سنة.

13- العسكري (أبو هلال ت 395ه)،كتاب الصناعتين الشعر والكتابة، تح: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة،صيدا،بيروت، 1986م.

14- عيسى علي العاكوب- علي سعد الشتيوي، الكافي في علوم البلاغة العربية(المعاني، البيان، البديع)، الجامعة المفتوحة، 1993م.

15- قدامة بن جعفر(ت337ه)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثنى، بغداد، 1963م.

4- الرسائل الجامعية:

1- محمود سليمان أحمد مسمع، البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني (فتح القـــدير)، مـــذكرة لاستكمال درجة الماجستير في البلاغة العربية، 1428 هـــ/ 2007م

فهرس

مقدمة.....أ

مدخل: 9

الفصل الأول: الالتفات الضميري 12

تمهيد: 13

تعريف الالتفات في اللغة والاصطلاح: 13

أ- لغة: 13

ب - اصطلاحا: 16

المبحث الأوّل:الالتفات من المتكلّم: 22

أ:إلى المخاطب: 22

ب:إلى الغيبة: 28

المبحث الثاني: الالتفات من المخاطب: 35

أ:إلى المتكلم: 35

ب:إلى الغائب: 37

المبحث الثالث: الالتفات من الغيبة: 45

أ:إلى المتكلم: 45

ب:إلى المخاطب: 51

الفصل الثاني:الالتفات في الأفعال.....60

المبحث الأول: الالتفات من الماضي: 61

أ-إلى المضارع: 61

ب:إلى الأمر: 72

المبحث الثاني: الالتفات من المضارع: 77

أ:إلى الماضي: 77

ب–إلى الأمر: 90

ج:إلى اسم الفاعل: 96

د:إلى اسم المفعول: 99

المبحث الثالث: الالتفات من الأمر: 100

– إلى المضارع: 100

الفصل الثالث: الالتفات العددي 109

المبحث الأول:الالتفات من المفرد: 110

أ:إلى المثنى: 110

ب:إلى الجمع: 118

المبحث الثاني: الالتفات من المثنى: 130

أ–إلى المفرد: 130

ب:إلى الجمع: 140

المبحث الثالث:الالتفات من الجمع: 151

أ:إلى المفرد: 151

ب:إلى المثنى: 159

أنواع أخرى من «فن الالتفات»: 165

1: الالتفات بين الإضمار والإظهار: 165

2: بين تذكير الضمير وتأنيثه: 168

3: الالتفات في مجال الصيغ: 172

3 -1- بين صيغتي الفعل: 173

3- 2 – بين صيغتي الاسم: 175

3-3 بين الاسم والفعل: 176

4: الالتفات في المعجم: 179

5: الالتفات في البناء النحوي: 182

خاتمة 184

قائمة المصادر والمراجع 188

فهرس الموضوعات..... 197

ملخّص:

القرآن الكريم نصّ معجز ببلاغته وفصاحته وبيانه ودقّة تصويره وجمال لغته، تضمّن ظواهر لغوية متعددة لطالما عمل المفسّرون والبلاغيون على دراستها، ومن بين هذه الظّواهر نجد «الإلتفات» الذّي هو موضوع بحثنا، فكانت صيغة العنوان: – **الإلتفات ودلالته في القرآن الكريم**– إذ حاولنا فيه تبيان مدى إسهامه في خدمة الجانب الدّلالي والإعجازي في القرآن الكريم، وذلك بتقسيم البحث إلى مقدمة ومدخل خصّصناه للحديث عن الإعجاز القرآني، وخاتمة تضمّنت أهم النتائج والملاحظات وثلاثة فصول.

كان عنوان الفصل الأول: الإلتفات الضّميري، إفتتحناه بتمهيد بيّنا فيه معنى الالتفات في اللّغة وفي الإصطلاح ضمناه ثلاثة مباحث مقسّمة بحسب نوع الضّمير.

أما الفصل الثّاني فهو معنون بالإلتفات في الأفعال، شكّلناه من ثلاثة مباحث، والفصل الثّالث فكان تحت عنوان الإلتفات العددي، وضمّ ثلاثة مباحث.

وفي الأخير وقفنا على انواع أخرى من هذا اللّون البلاغي أهمّها: (– الإلتفات بين الإضمار والإضهار– الإلتفات بين تذكير الضّمير وتأنيثه – الإلتفات في مجال الصّيغ – الإلتفات في المعجم – الإلتفات في ابناء النّحوي).

إعتمدنا في كل مباحث الفصول على منهجية واحدة في التّحليل، وهي القائمة على ذكر المواضيع التي ورد فيها التّحول في الكلام مع استعراض آراء المفسّرين والبلاغيين فيه.

تناولنا في كل هذه الفصول ما ورد في القرآن الكريم من هذه الظاهرة البلاغية معتمدين على جهدنا الشّخصي في الإستقراء.

الكلمات المفتاحية: – الالتفات / الدلالة / القرآن الكريم.